القِيَم الحَضَارِيّة

في

السُّنّة النَّبَوِيّة

بقــلم

د. عيْسَى بنُ عوّاض العُضَيّاني

نزيل المدينة النبوية

غفر الله له ولوالديه ولمشايخه وللمسلمين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومن والاه ، أما بعد :

فإن العالم برمّته - لا سيما في العصور المتأخرة - يعيش أزمة أخلاقية تفتقر إلى الرجوع للمنبع الصافي ، والمعين العذْب الذي لا ينضَب ؛ ليستقيَ منه أطهر أخلاقه ، ومنهج تطبيقه على أرض الواقع ؛ ولتخرج الأمة من هذه الأزمة ، وتسلم من هذا العراك الأخلاقي الذي تعيشه ، والذي أصبح سائداً في العالم أجمع ، وذلك بالرجوع لكتاب الله تعالى ، وإلى سنة رسوله r .

وقد أنقذ الله البشرية بتشريع الشرائع ، وسن المناهج السماوية ، وذلك من خلال هذه الشريعة الإسلامية الخالدة ، على يد النبي الكريم r ، ومع هذا فقد تنكب أناس الطريق ن وحادوا عن الجادّة فنالهم من جرّاء ذلك ما نالهم ، وهو مصداق قول الله تعالى : " **وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرّق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون** " (الأنعام ...)

ومن النماذج الرائدة التي استطاعت التمسك بذلك المنهج ، والسير في سبيله ولم تحد عنه يمنة و يسرة ؛ فضربت بذلك أروع الأمثلة التي لا ينتهي منها العجب أنموذج : الصحابة الكرام – رضوان الله عليهم - الذين لا تفتأ الأمم من بعدهم تنهل من سيرهم ، وتستقي منها الدروس العمليّة في شتى مناحي الحياة ، وتتشرف بدراسة فضائلهم ومكارم أخلاقهم ، وكل هذا آت من النبع الأصلي ، والمعين الصافي وهو : وهو الرسول الهادي لأقوم الطرق وأفضل السبل : محمد بن عبد الله r .

وعلى هذا فمن سلك سبيلهم ، واستن بسنتهم التي تابعوا فيها رسولهم- صلوات الله وسلامه عليه - فقد أخذ بمعاقد العزّ ، واستولى على أسباب النصر والتمكين ، واستمسك بسبل النجاة والسعادة في الدارين ، ومن تنكّب طريقهم وحاد عن جادّتهم ومناهجهم فإنه يصيبه من الخلل بقدر بعده عن ذلك المنهج .

وإن من دواعي سروري وغبطتي المشاركة بهذا البحث في : مسابقة جائزة نايف بن عبد العزيز آل سعود. للبحوث والدراسات الإسلامية ، وذلك ضمن موضوع : " القيم الحضارية في السنة النبوية ".

وإن السنة النبوية هي المعين الثرّ الذي يجب أن يستقى منه ذلك الموضوع ، وتستنبط منه تلك القيم حقيقة ، بعد أن عاش الناس في ظل القوانين الوضعية ردحاً من الزمن يبحثون عن تلك القيم التي تلبي لهم مطالبهم ، وتحقق لهم أهدافهم ، من الحياة الكريمة والاستقرار والراحة والطمأنينة . ولكن لم تقف خلال تلك الحقبة الزمنية شيء من الانتهاكات بشتى أشكالها وصورها ، في الأعراض والأبدان والأموال والممتلكات وغيرها في شتى بقاع العالم ؛ حتى إن الناس قد ملّوا من تلك القوانين ، وبدؤوا يبحثون عن وسائل وطرق أخرى تكفل لهم حقوقهم ، وتضمن لهم العدل والإنصاف الذي فقدوه من تلك الأنظمة والقوانين في تلك العهود المتلاحقة ، بل طالت تلك الشكاوى المنظمات التي حملت على عاتقها كفالة الحقوق ورعايتها ، كمنظمة حقوق الإنسان والمنظمات الأممية الأخرى .

وبالطبع فإن القادر على ذلك هي جهة واحدة وهي : الشريعة الربّانية الخالدة ، بشرط التمسك بها والعضّ عليها بالنواجذ ، وعدم الحياد عنها يمنة أو يسرة ، والسنة النبوية المطهرة جزء من ذلك لا يتجزّأ.

*** أهمية الموضوع :**

١- الرد على دعاة التغريب ، الذين يدعون إلى التفلُّت من أحكام الإسلام وقيمه ومبادئه ؛ بحجة التخُّلف والرجعيّة ، وعدم مواكبة العصر ، وإن من المؤسف حقاً أن يسمع هذا النداء من إذاعات المسلمين ويقرأ في صحفهم ، من الانبهار الكبير بالغرب وقيمه السفلية ، ونسيان الشريعة السماوية الخاتمة .

٢- إثارة ما كان كامناً من المنبع الصافي والمورد العذب ، من تلك القيم الرفيعة التي كان نبراسها وأساسها النبي r الذي وصفه ربه بقوله : " **وإنك لعلى خلق عظيم** " [سورة القلم ...] .

٣- إعطاء السنة حقّها ومستحقّها من العناية ، ولو من هذا الجانب فحسب ، والاعتداد بها كمصدر من مصادر التشريع ، ولكن في هذه المرة سيكون بالتطبيق العملي ، وذلك بالرجوع إليها واستلهام الأحكام والعبر والدروس التربوية من معينها ، لما تشتمل عليه من الأخلاق الفاضلة ، والشيم الكريمة والحكم النبيلة التي هذّبها الله تعالى على لسان رسوله r ، وجعلها في شخصية النبي الكريم r .

٤- إعانة الجادّين في التمسّك بالسنة النبويّة وذلك بتقريب ما كان بعيداً ، وتيسير ما كان عسيراً ، وإبعاد الفهوم التي قد تخدش في صفاء السنة وإشراقها ، حتى يطمئن المستن بثبوت تلك الصفة ، وصحة تلك الخصلة عن سيد الأولين والآخرين r .

*** منهجي في البحث :**

١- جمع الأحاديث النبوية من مصادرها الأصليّة ، كالكتب التسعة وغيرها ، واستقراء الأحاديث المتعلقة بالموضوع منها ، ثم تقسيم ذلك على عدّة موضوعات ، ترى تفصيلها في خطة البحث .

٢- بيان معنى تلك الأحاديث ، وشرحها شرحاً يفي بالمقصود من كلام أهل العلم المعتبرين .

٣- تخريج الأحاديث التي يمرّ ذكرها في أثناء الموضوع تخريجاً يفي بالمقصود ، ولكن على وجه الاختصار مع ذكر الحكم الأحاديث.

٤- تجنب إيراد ما لم يصح من الأحاديث عن النبي r ، سواء كان حديثاً ضعيفاً ، أم كان موضوعاً ، إلا أن يكون إيراده لغرض التنبيه على عدم ثبوت نسبته للنبي- r -.

٥- ما كان من الأحاديث مخرّجاً في الصحيحين فإنني أكتفي بعزوه إليهما ؛ لتلقي الأمة لهما بالقبول ؛ فإن أحاديثهما قد جاوزت القنطرة ، وإن كان في غيرهما ذكرته مع ذكر من خرّجه ، ومن تولى الكلام عليه صحة وضعفاً من العلماء المعتبرين في الفن.

٦- أذكر هوامش البحث والتعليق في ختام كل صفحة من صفحات البحث ، مع ذكر الجزء والصفحة لكل مسألة من المسائل التي تقتضي التوثيق.

٧- أعزو الآيات إلى سورها مع رقم الآية .

٨- أحاول استقصاء النصوص الواردة في أنواع القيم الحضارية ، مع الاكتفاء ببعض النصوص الواردة في أنواع تلك القيم كلها ، مع الاستفادة من كلام أهل العلم في إيضاح تلك النصوص .

٩- التعريف بالمصطلحات الغريبة التي تفتقر لذلك ، من كتب القواميس ومفردات اللغة المعتمدة .

١٠- ذكر أقوال أهل العلم فيما وقع فيه خلاف ، باختصار مع الإشارة إلى القول الراجح في المسألة بدليله.

١١- محاولة حكاية تلك القيم الحضارية المتّفقة مع الشريعة ، وصياغتها صياغة تدفع إلى التطبيق العملي ، كما هو واقع النبي r وأصحابه - رضوان الله عليهم - وبيان سبقه لكل تلك المؤسسات الأممية التي تدعو وترفع الشعارات المنادية بالتمسك بالقيم منذ قرون متطاولة ، مع سلامة المنهج وعصمة المسلك من جانبي الإفراط والتفريط.

١٢- الرجوع إلى المصادر المعتمدة في توثيق القيم الحضارية العالمية من مظانها عندهم ، حذراً من فساد النقل أو الخطأ في نسبة شيء لغير من قال به.

١٣- السير على المنهج المتّبع في البحوث العلمية ، ومراعاته في أثناء عرض المسائل ، مع توخّي السهولة والوضوح في الأسلوب ؛ إذ المقصود هو إفادة القارئ وإضافة الجديد لديه ، أيا كانت ثقافته مستواه العلمي.

١٤- ذيلت البحث بخاتمة تتضمن نتائج مستوحاة من البحث في الجملة ، مع ضم خوادم أخرى للبحث ، كفهارس المصادر والمراجع ، وفهرس الموضوعات.

ومنه تعالى أستمد العون والتوفيق والسداد ، وأسأله التيسير والهدى والرشاد ، وهو نعم المعين والموفق لا إله غيره ولا رب سواه .

وصلى الله على عبده ومصطفاه نبينا محمد بن عبد الله وعلى آله ومن والاه .

*** خطـــــــــة البحث :**

مقدمة : وتشتمل على :

- أسباب اختيار الموضوع.
- أهميته .

الفصل الأول : مفهوم القيم وأنواعها ، ويشتمل على مباحث :

المبحث الأول : تأصيل مفهوم القيم من الناحية الشرعية في الكتاب والسنة .

المبحث الثاني : علاقة القيم بالسنة النبوية .

المبحث الثالث: مفهوم القيم في الإسلام ، لغة ، واصطلاحاً.

المبحث الرابع : مفهوم القيم في الفكر الغربي المعاصر.

المبحث الخامس : مقارنة بين مفهوم القيم في الإسلام والفكر الغربي.

المبحث السادس : مفهوم القيم في الفكر الفلسفي.

الفصل الثاني : أسس القيم وخصائصها في الإسلام والفكر الغربي ، وفيه مباحث :

المبحث الأول : أسس القيم في الإسلام : وفيه مطالب :

المطلب الأول : الأساس الاعتقادي.

المطلب الثاني : الأساس الواقعي والعلمي.

المطلب الثالث : الأساس الإنساني.

المطلب الرابع : أساس الحرية.

المطلب الخامس : أساس المسؤولية.

المطلب السادس : الأساس الجزائي.

المبحث الثاني : أسس القيم في الفكر الغربي المعاصر ، وفيه مطالب :

المطلب الأول : المنفعة.

المطلب الثاني : المادة.

المطلب الثالث : منهج التفكير المادي.

الفصل الثالث: خصائص القيم بين الإسلام والفكر الغربي ، وفيه مباحث :

المبحث الأول : خصائص القيم في الإسلام

المبحث الثاني : خصائص في الفكر الغربي

المبحث الثالث : خصائص القيم في الفكر الفلسفي .

الفصل الرابع : القيم الحضارية في السنة النبوية . وفيه مباحث :

المبحث الأول : قيم الإعلام والاتصال ، وفيه مطالب :

المطلب الأول : مبدأ الحرية في التعبير.

المطلب الثاني : مقاصد الخطاب الإعلامي.

المبحث الثاني : القيم الاجتماعية ، وفيه مطالب :

المطلب الأول : القيم البانية للمجتمع.

المطلب الثاني : قيم الصراع مع الآخر.

الفصل الخامس : معاملة الأعداء وقت الحرب في السنة النبوية ، وفيه مباحث :

المبحث الأول : أساس القانون الدولي الإنساني في السنة النبوية المشرّفة .

المبحث الثاني : مراعاة قواعد القانون الدولي الإنساني في السنة النبوية .

المبحث الثالث : حقوق ضحايا الحرب في السنة النبوية .

المبحث الرابع : ضمانات احترام حقوق ضحايا الحرب في السنة النبوية .

المبحث الخامس : جواز خدع الحرب وحظر الغدر.

الفصل السادس : أثر السنة النبوية في ترسيخ القيم لاجتماعيه النفوس. وفيه مباحث :

المبحث الأول : أثر السنة في توجيه السلوك الاجتماعي ، وضبط التصرفات الإنسانية .

المبحث الثاني : أثر السنة في رعاية المرأة واحترامها ، والاهتمام بحقوقها.

المبحث الثالث : أثر السنة في رعاية الفقراء والمحتاجين والاهتمام بهم.

المطلب الرابع : أثر السنة في الترفيه عن المجتمع والترويح عن النفس.

المبحث الخامس : أثر السنة في ترسيخ قيمة الحذر والحرص على سلامة المسلمين.

الفصل السابع : أثر السنة النبوية في ترسيخ القيم الأخلاقية في النفوس. وفيه مباحث :

المبحث الأول : أثر السنة في ترسيخ القيم الذوقية والجمالية .

المبحث الثاني : أثر السنة في ترسيخ قيمة الرفق والتيسير .

المبحث الثالث : أثر السنة في ضحايا حرية الرأي والتعبير.

المبحث الرابع : أثر السنة في ترسيخ قيمة العفة والقضاء على سوء الظن .

المبحث الخامس : أثر السنة في ترسيخ قيمة الوفاء وتكريم أهل الفضل .

الفصل الثامن : قيمة المستقبلية في السنة النبوية ، وفيه مباحث :

المبحث الأول : كيفية تأسيس النبي **r** للمستقبلية .

المبحث الثاني : التمييز بين التنبؤ الفاسد والتنبؤ السليم في السنة النبوية .

المبحث الثالث : المستقبل والصحة النفسية في التوقع السليم في السنة النبوية .

المبحث الرابع : التخطيط المستقبلي على العهد النبوي .

المبحث الخامس : آداب المستقبلية في السنة النبوية .

المبحث السادس : قواعد فقه المستقبلية في السنة النبوية .

الفصل التاسع : قيمة العلم والمعرفة في السنة النبوية ، وفيه مباحث :

المبحث الأول : التأكيد على طلب العلم والعمل به في السنة النبوية .

المبحث الثاني : العناية بالتعلم مقابل فك أسرى الحرب في السنة النبوية .

المبحث الثالث : القيم الحضارية في عملية الإحصاء والعدّ.

المبحث الرابع : القيم الحضارية في إنشاء الترجمة والاهتمام باللغات.

الفصل العاشر : قيمة الحوار في السنة النبوية ، وفيه مباحث :

المبحث الأول : الإطار النظري للحوار .

المبحث الثاني : الأبعاد الحضارية الكبرى للحوار النبوي .

المبحث الثالث : الممارسة النبوية للحوار .

الفصل الحادي عشر : قيمة التخاطب في السنة النبوية : وفيه مباحث :

المبحث الأول : الآداب المتعلقة بالكلمة .

المبحث الثاني : الآداب المتعلقة بلغة الجسد .

المبحث الثالث : إتقان مهارات التخاطب .

المبحث الرابع : حفظ الحق المعنوي للتخاطب .

المبحث الخامس : مراعاة الفروق الفردية بين المخاطبين .

المبحث السادس : مراعاة الحالة النفسية للمخاطب.

الفصل الثاني عشر : مراعاة ذوي الاحتياجات الخاصة في السنة النبوية : وفيه مباحث :

المبحث الأول : معايير التفاضل بين الناس في النصوص السنة لنبوية . :

المبحث الثاني : أسرار وحكم الإعاقة وثواب والصبر عليه.

المبحث الثالث : مراعاة التخفيف في التكاليف الشرعية على المعاق .

المبحث الرابع: مساواة ذوي الإعاقة بالأصحاء في الأجر وتكريمهم .

المبحث الخامس: الواجب تجاه أصحاب الإعاقة.

المبحث السادس: عناية الصحابة والتابعين ومن بعدهم بذوي العاهات .

المبحث السابع : أذكار المعافاة من الإصابة بالإعاقة .

المبحث الثامن : نماذج من أشهر القادة والعلماء من ذوي الإعاقة في التاريخ الإسلامي .

الفصل الثالث عشر : رعاية المسنين في السنة النبوية، وفيه مباحث :

المبحث الأول : رعاية الوالدين عند الكبر أحدهما أو كلاهما .

المبحث الثاني : آداب التعامل مع المسنين .

المبحث الثالث : رعاية المسنين في الحروب .

المبحث الرابع : التيسير ورفع الحرج عن المسنين في بعض الأحكام التكلفية .

المبحث الخامس : مكافحة الشيخوخة في السنة النبوية .

وفيه مطالب :

المطلب الأول : أسس رعاية المسنين في السنة النبوية .

المطلب الثاني : مظاهر رعاية المسنين في السنة النبوية.

المطلب الثالث : النظام الغذائي السليم المتوازن .

المطلب الرابع : العناية بنظافة البدن والمنزل والبيئة .

المطلب الخامس : ممارسة الرياضة .

المطلب السادس : التداوي من الأمراض .

المطلب السابع : الاهتمام بالصحة النفسية .

المطلب الثامن : رعاية المسن غير المسلم في السنة النبوية.

المطلب التاسع : بعض الأحكام الشرعية الخاصة بالنساء.

الفصل الرابع عشر : الإنفاق والاستهلاك في السنة النبوية . وفيه مباحث :

المبحث الأول : مفهوم الإنفاق والاستهلاك .

المبحث الثاني : حماية المستهلك .

المبحث الثالث : ضوابط تنظيم الإنفاق والاستهلاك . وفيه مطالب :

المطلب الأول : ترشيد الإنفاق والاستهلاك .

المطلب الثاني : قواعد تنظيم الإنفاق والاستهلاك.

المبحث الرابع : الإنفاق المحمود . وفيه مطالب :

المطلب الأول : الإنفاق في الزكاة الواجبة .

المطلب الثاني : الإنفاق في زكاة الفطر .

المطلب الثالث : الإحسان إلى الفقراء والمساكين وذوي القربى والضيف واليتامى والأرامل وفي سبيل الله وابن السبيل .

المطلب الرابع : مراعاة الحالات الطارئة وظروف المؤلفة قلوبهم والأرقاء والغارمين بالإنفاق.

المطلب الخامس : الإنفاق في كل ما يخدم المجتمع .

المبحث الخامس : الإنفاق المذموم المحرم بالإسراف والتبذير.

الفصل الخامس عشر : ترشيد استهلاك الماء في السنة النبوية . وفيه مباحث :

المبحث الأول : الأسباب الطبيعية والبشرية المتسببة في التغيرات المناخية .

المبحث الثاني : ترشيد استهلاك الماء . في السنة النبوية

الفصل السادس عشر : ركائز الاستثمار والتنمية في السنة النبوية . وفيه مباحث :

المبحث الأول : دور السنة النبوية في تعبئة الموارد البشرية .

المبحث الثاني : دور السنة النبوية في تعبئة الموارد الطبيعية .

المبحث الثالث : = = = = = = المواد المالية .

المبحث الرابع : ركائز التنمية الاقتصادية في السنة النبوية. وفيه مطالب :

المطلب الأول : دور نظام الملكية في السنة النبوية في التنمية الاقتصادية .

المطلب الثاني : دور السوق الإسلامية في السنة النبوية في تحقيق التنمية الاقتصادية.

المبحث الثالث : دور نظام التوزيع الإسلامي في السنة النبوية في تحقيق التنمية الاقتصادية.

المبحث الرابع : دور الوقف في السنة النبوية .

المبحث الخامس : دور المشاركة الشعبية في السنة النبوية في تحقيق التنمية الاقتصادية.

المبحث السادس : دور التكافل الاجتماعي في السنة النبوية في تحقيق التنمية الاقتصادية .

الفصل السابع عشر : ركائز التنمية المستدامة وحماية البيئة في السنة النبوية ، وفيه مباحث :

المبحث الأول : المقصود بالتنمية المستدامة والاصطلاحات ذات العلاقة.

المبحث الثاني : المقصود بالتنمية المستدامة وحماية.

المبحث الثالث : العناصر الأساسية للتنمية المستدامة.

المبحث الرابع : الركائز التي تقوم عليها التنمية المستدامة في السنة النبوية .

المبحث الخامس : القواعد الفقهية المتعلقة برعاية البيئة.

الفصل الثامن عشر : علاقة الإيمان بالتنمية البشرية في السنة النبوية . وفيه مباحث :

المبحث الأول : مفهوم الإيمان ، وأنواع العمل.

المبحث الثاني : إيضاح علاقة أنماط العمل بالإيمان.

المبحث الثالث : أهمية العمل في الإسلام .

المبحث الرابع : نماذج من التنمية العمرانية في عهد صدر الإسلام .

الفصل التاسع عشر : الاستثمار الزراعي من خلال السنة النبوية ، وفيه مباحث :

المبحث الأول : مفهوم الاستثمار الزراعي وحكمه في السنة النبوية.

المبحث الثاني : شبهات حول موقف السنة النبوية من الزراعة . والرد على الطاعنين فيها.

المبحث الثالث : ملكية الأرض في السنة النبوية.

المبحث الرابع : إحياء الأرض الموات ، حكمه وحكمته في السنة النبوية .

المبحث الخامس : نظام الإقطاع والحمى ، أهميته ودليل مشروعيته في السنة النبوية .

المبحث السادس : كراء الأرض الزراعية في السنة النبوية .

المبحث السابع : الاستثمار الزراعي الخاص . حكمه وحكمته.

المبحث الثامن : المزارعة . حقيقتها وحكمتها والحكمة منها .

المبحث التاسع : المساقة ، حكمها والحكمة منها.

المبحث العاشر : الغارسة ، حقيقتها وحكمها وقيمتها في استثمار الأشجار.

الفصل العشرون : أخلاقيات العمل الاقتصادي في السن النبوية . وفيه مباحث :

المبحث الأول : مفهوم المال في السنة النبوية .

المبحث الثاني : معايير الكسب في السنة النبوية .

المبحث الثالث : ضوابط وأخلاقيات العمل في السنة النبوية .

الفصل الحادي والعشرون : ترابط المجتمع في السنة النبوية ، وفيه مباحث :

المبحث الأول : التعامل مع ولي الأمر .

المبحث الثاني : التعامل مع الأهل والأولاد .

المبحث الثالث : التعامل مع الوالدين وذوي القربى .

المبحث الرابع : التعامل مع الجيران والخلان .

المبحث الخامس : التعامل مع الخدم وذوي الحاجات .

المبحث السادس : التعامل مع المسلم .

المبحث السابع : العوامل التي تساعد على الترابط المجتمعي وتفككه، وفيه مباحث ،

المبحث الأول : صفات حميدة تعمل على تقوية ترابط المجتمع.

المبحث الثاني : صفات ذميمة تعمل على تفكك ترابط المجتمع.

الفصل الثاني والعشرون : الاتصال الجماهيري والرأي العام في السنة النبوية. وفيه مباحث :

المبحث الأول : الاتصال في السنة النبوية ، وفيه مطالب:

المطلب الأول : خطة النبي **e** الإعلامية.

المطلب الثاني : وسائل النبي **r** الإعلامية.

المبحث الثاني : الرأي العام في السنة النبوية ، وفيه مطالب :

المطلب الأول : بناء الرأي العام في السنة النبوية ووسائله.

المطلب الثاني : الرأي العام في السنة النبوية والمبادئ المهمة.

*** الخاتمة :**

١ـ النتائج

٢ـ التوصيات .

*** الفهارس :**

١ـ فهرس المصادر والمراجع.

٢ـ فهرس الموضوعات.

والحمد لله رب العالمين وصلى الله على نبيه الأمين وعلى آله وصحبه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وسلم تسليماً كثيراً.

كتبه

د. عيسى بن عواض العضياني

نزيل المدينة النبوية

يوم الأحد ١٤٣٠/٧/١٢هـ

جوال ٠٥٠٤١٩٩٢٦٢

الفصل الأول

مفهوم القيم وأنواعها وعلاقتها بالسنة النبوية .

ويشتمل على مباحث :

المبحث الأول : تأصيل مفهوم القيم من الناحية الشرعية في الكتاب والسنة .

المبحث الثاني : علاقة القيم بالسنة النبوية .

المبحث الثالث : مفهوم القيم في الإسلام لغة واصطلاحا .

المبحث الرابع : مفهوم القيم في الفكر الغربي المعاصر.

المبحث الخامس : مفهوم القيم في الفكر الفلسفي .

المبحث السادس : مقارنة بين مفهوم القيم في الإسلام والفكر الغربي.

تمـــهيد :

مقصـود هـذا الفصـل هـو : ذكـر أدلـة بعـض أصـول القـيم الحضـارية وتأصيلها من الكتاب والسنة ، ومن ثَّم الحديث عن المفاهيم الأخرى ، كمفهوم القيم في الفكر الفلسفي والفكر الغربي ، ثم عقد مقارنة موجزة بين تلك المفاهيم وبين المفهوم الإسلامي الأصيل ،،،،،،

المبحث الأول

تأصيل مفهوم القيم من الناحية الشرعية في الكتاب والسنة

لما كانت الشريعة الإسلامية هي خاتمة الشرائع ، ولما كان رسولها خاتم الرسل كما قال سبحانه : " ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين ..." (سورة الأحزاب ...)

كانت شريعته كاملة وشاملة لكافة مناحي الحياة وجميع جوانبها بكل ما تحمله الكلمة من معنى ؛ ولما كان الأمر كذلك فقد دلت النصوص الكثيرة من الكتاب والسنة النبوية الشريفة على إثبات تلك القيم التي ينادي بها الغرب ، ويلزم بها مجتمعاته ، ويطبقها واقعاً ، حتى نتج من جراء ذلك انبهار الشرق بذلك التميز الذي حظيت به من جراء ذلك .

وسأشير في هذه العجالة إلى بعض القيم وأدلتها ، والبعض منها يدل على بقيتها ويرشد إلى ما وراءه منها ، والحر تكفيه الإشارة :

- مبدأ العدالة : وعدم التعدي والجور والظلم هي شعار الإسلام ، وقد أمر الله بها في مواضع عدة من كتابه العزيز ، ومن ذلك قوله : " إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي ، يعظكم لعلكم تتفكرون " (سورة النحل ٩٠) .

وضد العدل الظلم وهو محرم حتى في تعامل المرء مع نفسه ؛ كقتل النفس فهو من الكبائر ، وكما قال النبي r لأبي الدرداء وكان هاضما لنفسه بعض الشيء ، مقبلا على العبادة إقبالا تاماً ؛ فأنكر عليه سلمان الفارسي ذلك ؛ فشكا ذلك للنبي r فقال له : " إن لجسدك عليك حقاً ، وإن لعينك عليك حقاً ، وإن لزوجك عليك حقاً ، وإن لزورك عليك حقاً ، فأعط كل ذي حق حقه " . (رواه البخاري عن عبد الله بن عمرو بن العاص ٦٩٧/٢) .

والعدالة على ثلاثة أقسام : عدالة في التصور والاعتقاد : وهذه هي أعلى صور العدالة ، وعدالة مع النفس : بأن يراعي احتياجات جسده بما لا يعود عليه بالضرر ، والمحافظة عليها ، ومن ذلك ألا يعرِّضها للقتل – كما سبقت الإشارة إليه – قال تعالى : " ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيماً" (سورة النساء ....) وعدالة مع الآخر ، سواء كان صديقاً أم عدواً ، قريباً أم بعيداً ، كما قال تعالى : " اعدلوا هو أقرب للتقوى " (سورة المائدة ٨) ، وكل الأقسام جاء من النصوص ما يدل عليه ويعضده .

- الرحمة : وهي من القيم الإسلامية البارزة في نصوص الوحيين ، ومن ذك قوله تعالى : " وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين " (الأنبياء ١٠٧) وهذا الخطاب لرسول الإسلام ، يخبر

عنه تعالى أنه إنما أرسل رحمة للعالم كل العالم ؛ فدل ذلك على أن رسالته مبنية على الرحمة لمن في الأرض جميعاً حتى الكفار منهم والمخالفون لمنهج الله.

وهذه الرحمة رحمة كونية شاملة لأهل الأرض بل والسماء كذلك . قال r : " الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء " . (رواه الترمذي / وأبو داوود / وأحمد والحاكم) وعن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : " أبصر الأقرع بن حابس التميمي النبي r يقبل الحسن بن علي فقال : إن لي عشرة من الولد ما قبلت أحداً منهم ، فقال النبي r : " من لا يرحم الناس لا يرحمه الله عز وجلّ " . (رواه مسلم في الصحيح برقم ( ) (/)) وهذه النصوص فيها إشارة إلى أن المسلم ينبغي أن يكون من طبيعته رحمة الناس ، بل والكون كله ، حتى الجمادات والحيوانات ، وتكون هذه الرحمة لكل واحد من أفراد هذا الكون بحسبه ، وإن كانت رحمة المسلم لأخيه المسلم فوق رحمته لغير المسلم ، قال تعالى : " يا أيها الذين آمنوا من يرتدّ منكم عن دينه فسوف يأت الله بقوم يحبهم ويحبونه ، أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ، يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ..." (سورة المائدة) ومن مشمولات هذه الرحمة : تشمل عالم الطهر والبراءة وهو عالم الطفولة ، وتمتد حتى تسع الأعداء المعتدين الذين يستحقون القصاص لجرائمهم ، " ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلكم تفلحون " (سورة البقرة ...)

- التكافل الاجتماعي : فالوحدة والتآلف والاجتماع من مقاصد الشريعة ، وهذا شأن المجتمع الرشيد ، المجتمع الذي يتماسك أبناؤه وأفراده ، فهم كالجسد الواحد يشعر الغني بألم الفقير فيواسيه بماله ، وكذا بقية أفراد المجتمع ؛ ولهذا روى ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي r أنه قال : " ليس منا من لم يوقر الكبير ويرحم الصغير ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر " (رواه ابن حبان ٢٠٤/٢) وقال سبحانه : " وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ، واتقوا الله إن الله شديد العقاب " (سورة المائدة ٢) وقال سبحانه : " إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون " (سورة الحجرات ...) بل إن التعاون يمتد ليشمل المخالف في الدين ، من أبناء الشرائع الأخرى ، كاليهود والنصارى ، كما قال سبحانه : " لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إن الله يحب المقسطين ، إنما ينهاكم الله عن الذين

قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون " (سورة الممتحنة ٨-٩) .

- الحرية : والأدلة على تأصيل مبدأ الحرية في الشريعة الإسلامية كثيرة وظاهرة ، ومن ذلك قوله تعالى : " لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم " (سورة البقرة ٢٥٦) قال ابن جرير الطبري – في تفسير هذه الآية - : ... قال بعضهم : نزلت هذه الآية في قوم من الأنصار – أو في رجل منهم – كان لهم أولاد قد هودوهم أو نصروهم فلما جاء الله بالإسلام أرادوا إكراههم عليه فنهاهم الله عن ذلك حتى يكونوا هم يختارون الدخول في الإسلام .(جامع البيان في تأويل القرآن – المسمى : تفسير الطبري ١٥/٣) وقال سبحانه : " ولو شاء الله لآمن في الأرض جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين " (سورة يونس ...) وهذه الحرية في الشريعة الإسلامية منضبطة بضابط الشريعة ، فليست حرية مطلقة تمام الانطلاق ومنفلتة تمام الانفلات بحيث يؤدي ذلك إلى الفساد في البلاد ، والتعدي على حقوق الآخرين ، بل هي تعطي الإنسان قدراً من الجبلة التي طبعت عليها النفوس من التحرر من القيود ، ولكن تحت مظلة الرعاية التشريعية التي تحمي من الانزلاق ، وتحفظ من ضعف الإدراك البشري لما يسره وما يضره في كثير من الأحايين.

ولما كانت الحرية قد أخذت حيزاً طيباً من التشريع الإسلامي أصبح الإسلام أكبر ثورة في تاريخ البشرية ضد الظلم والتعسف والإكراه والاستعباد .

ومن صور الحرية : الحرية في اختيار الاسم و البقاء عليه أو تغييره ، فقد روى سعيد بن المسيب عن أبيه أن النبي **r** قال لجدّه : ما اسمك ؟ قال : حزن ، فقال **r** بل أنت سهل ، قال : لا أغير اسماً سمانيه أبي ، قال سعيد : فما زالت فينا حزونة بعد . (رواه ابن حبان في الصحيح ١٣/ ١٣٧ واحمد وأبو داوود والطبري وغيرهم).

فقد راعي النبي **r** هنا حرية هذا الشخص فلم يلزم بتغيير اسمه مع أنه قد يترتب عليه ضرر من ذلك الاسم ، لكن لما وجده غير راغب في التغيير تركه ، مع أنه كان من عادته تغيير الأسماء غير الحسنة كأسماء الحيوانات وذات المعاني القبيحة ، كعاصية غير اسمها إلى جميلة ... إلخ .

- العلم : ومن أقوى الدلائل على عناية الإسلام بالعلم هي : نزول أول آية من كتاب الله في الأمر به ، كما في قوله تعالى : " اقرأ باسم ربك الذي خلق " (العلق ١) ولم يأمر الله نبيه محمداً r أن يطلب الازدياد من شيء سوى العلم ، كما قال تعالى : " وقل ربي زدني علماً " (طه ١١٤) وبين تعالى أن من مهمات النبي r تعليم أصحابه وتعليم الأمة من بعدهم شريعته التي أوجد الخليقة لأجلها ؛ فقال سبحانه : " لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين " (آل عمران ١٦٤) وجاء نصوص كثيرة في الحض على العلم والترغيب فيه وبيان فضائله وما يترتب عليه من الأجور العظيم والمحاسن الكريمة ، ومن ذلك قوله r : " ... ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة ..." الحديث .
ومنه قول النبي r : " طلب العلم فريضة على كل مسلم " (رواه السيوطي في الجامع الصغير ...) إلى غير ذلك من النصوص الكثيرة في هذا المعنى .

والدعوة إلى العلم في الشريعة الإسلامية لها ميزتان :

الأولى : أنها دعوة متكاملة ، فهي تشمل الدعوة إلى العلم الشرعي والدنيوي ، وإن كانت النصوص الواردة في فضل العلم وأهله يراد بها العلم الشرعي ، لكن باقي العلوم الدنيوية إذا نوى بها النية الصالحة انقلبت من كونها مباحة إلى كونها مطلوبة مرغّب فيها لما ؛ فيها من سد لحاجة المسلمين لئلا يحتاجوا إلى أعدائهم . وهذا خلافاً للنصرانية التي تدعو إلى التعلم الديني ونبذ العلوم الدنيوية جانباً.

وخلافاً لحال الماديين والملحدين الذين اقتصروا في علومهم وبحوثهم على أمور الدنيا فحسب ، ولهذا ذمهم الله تعالى في قوله : " يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم الغافلون " (الروم ٧)

الثانية : أن العلم المحمود في الشريعة هو العلم النافع ، الذي تنتفع به البشرية ويخدم الإنسانية دون ما سواه من العلوم التي لا نفع فيها ، بل والعلوم الضارة ، كالسحر – مثلاً – الذي يستخدم في إيصال الأذى للآخرين ، كما قال تعالى : " ... فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق ، ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون ". (البقرة ١٠٢)

والعلوم الحديثة في ظل الحضارة المادية لا غاية لها من دين أو خلق ، كما أنها تشمل العلوم النافعة والضارة على حد سواء ، مما لحق بسببها أذى كثير بالإنسانية ومصالحها الأساسية.

- الشورى واعتبار آراء الآخرين وترك الاستبداد بالرأي دون الآخرين :

دين الإسلام دين يعتني بمراعاة نفوس أهله ، والأخذ بخواطرهم وجبر قلوبهم ، ومن ذلك نبذ الاستبداد بالرأي والتفرّد به والقطع ، به دون الرجوع إلى الآخرين ما من شأنه أن يوغر صدور الناس بعضهم على بعض ، وهذا خلاف مقصود الشارع الذي يتشوف إلى التآلف والمحبة ، كما يظهر ذلك من النصوص التي تحث على العفو والصفح ومقابلة والإساءة بالإحسان والصبر على أذى الغير ونحو ذلك مما هو فاش في الكتاب والسنة .

وقد أمر الله النبيه r بأن يستشير أصحابه فيما يقع له من الأمور ، كما في قوله تعالى : " فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله " (آل عمران ١٥٩) فكان كثير المشاورة لأصحابه مع ما أعطاه الله من رجاحة العقل وحسن الرأي وكما التدبير البشري .

وكذا سار أصحابه على نهجه من بعده فكان الواحد منهم يشاور أخاه في أمره وما يعرض له مما يهمه في أمر دينه ودنياه ، قال الألوسي : وقد كانت الشورى بين النبي r وأصحابه فيما يتعلق بمصالح الحروب ، وكذا بين الصحابة – رضي الله عنهم – بعده عليه الصلاة والسلام ، وكانت بينهم – أيضاً- في الأحكام ، كقتال أهل الردة ، وميراث الجد ، وعدد حد الخمر ، وغير ذلك ، والمراد بالأحكام : ما لم يكن لهم فيه نصّ شرعي . أ . هـ .(روح المعاني في التفسير ٤٦/٢٥).

وقد ترك الإسلام أمر الشورى مفتوحاً إلى يوم القيامة ، يختار المسلمون حكامهم بالطريقة التي يتفقون عليها ما لم تتعارض مع الشريعة ، وهي عملية شبيهة إلى حد ما بما يسمى في العصور المتأخرة : الديمقراطية ، وعلى هذا فالسبق في هذا المجال للإسلام قبل الغربيين بمئات السنين في تطبيق مبدأ الديمقراطية التي ينادي بها الغرب ويدعون إليها ، بل ويحاربون من يصادمها ويصمونه بالدكتاتورية ، كما حصل ذلك في بعض الدول المجاورة.

ولعل فيما ذكرت هنا كفاية ، و إنما هي مجرد أمثلة تدل على ما وراءها ، وتعرف بما خلفها من القيم العظيمة التي اشتمل عليها هذا الدين الخاتم ، ولذي تمثله الرسول r واقعاً عمليا في حياته ، فكان آية في الكمال البشري . كما قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها لما سئلت عن خلقه : " كان خلقه القرآن ".

المبحث الثاني

علاقة القيم بالسنة النبوية

عند كل مسلم مصدران اثنان للتشريع لا ثالث لهما ، إليهما يرجع وعليهما يعول في أخذ دينه واستقاء شريعته ، وهما : كتاب الله وسنة رسوله r ، كما r : " تركت فيكم ما لن تضلوا ما إن تمسكتم بهما ، كتاب الله وسنتي " (رواه ....) وهذان المصدران قد اشتملا على ما يحتاج إليه المسلم في جميع مناحي الحياة ، ومن ذلك الجانب الأخلاقي – أو ما يسمى بالقيم والمبادئ – وقد كان هذا الجانب واضحاً أشد الوضوح في شخص النبي r سواء في قوله أم في فعله ؛ ولهذا فقد وصفه ربه بأحسن الأوصاف والكمال الذي يمكن أن يصل إليه البشر فقال سبحانه : " وإنك لعلى خلق عظيم " (القلم ٤).

قال القرطبي - عند هذه الآية – وقالت – يعني عائشة رضي الله عنها- ما كان أحد أحسن خلقاً من رسول الله r ، ما دعاه أحد من الصحابة ولا أهل بيته إلا قال : لبيك ، ولذلك قال الله تعالى : " وإنك لعلى خلق عظيم " ولم يذكر خلق محمود إلا وكان للنبي r منه الحظ الأوفر ، وقال الجنيد : سمي خلقاً عظيماً لأنه لم تكن له همة سوى الله تعالى ، وقيل : سمي خلقه عظيماً لاجتماع مكارم الأخلاق فيه ، يدل عليه قوله عليه السلام : " إن الله بعثني لأتمم مكارم الأخلاق " (رواه ...) وقيل : لأنه امتثل تأديب الله تعالى إياه بقوله : " خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين " (الأعراف ...) وقد روى عنه عليه السلام أنه قال : " أدبني ربي تأديباً حسناً إذ قال : " خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين " فلما قبلت ذلك منه قال : " وإنك لعلى خلق عظيم " . (الجامع لأحكام القرآن ٢٢٨/١٨)

ولهذا لما كان هذا النبي الكريم بهذه المثابة من الأخلاق الكريمة والطباع والسجايا المستقيمة كان حقيقاً بالاقتداء والاتباع وهو كذا صلوات الله وسلامه عليه ؛ إذن فالعلاقة بين القيم وبين السنة النبوية هي علاقة بين الشيء ومصدره ومنبعه وأساسه فطلب الكمال الأخلاق من غير هذا الباب لا يوصل إلى المطلوب ولا يفي أبدا بالغرض المنشود ؛ ولهذا لما بحث الناس عن القيم العالية من غير هذا المصدر فسدت أخلاقهم وأسنت طبائعهم ، واختلفت مشاربهم ، وكان ما يعدّه البعض من الناس من مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم قبيحاً أشد القبح عند آخرين ؛ وما ذاك إلا لتباين مصادرهم التي يرجعون إليها ويستقون منها .

وقد حفظت عن النبي r أحاديث كثيرة جداً في الحث عل مكارم الأخلاق ومحاسن الشمائل وجميل السجايا ومن ذلك قوله r على سبيل المثال لا الحصر قوله :

- " أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقاً " (رواه ...)
- وقوله - لما سئل عن أكثر شيء يدخل الجنة قال - " تقوى الله وحسن الخلق " (رواه ...)
- وقوله : " إن الرجل ليبلغ بحسن خلقه درجة الصائم القائم " (رواه ...)

وإذا عدنا إلى معنى حسن الخلق فقد عرفه أهل العلم بأنه : الإنصاف في المعاملة ، والرفق في المحاولة ، والعدل في الأحكام ، والبذل والإحسان ، وإن شئت قلت : هو بذل الندى ، وكف الأذى وأن يحب للناس ما يحب لنفسه ، أو طلاقة الوجه ، وكف الأذى ، وبذل المعروف . (انظر المعين على تفهم الأربعين لابن الملقن ص٢٣٧، ط. الفاروق ، ت . عبد العال مسعد . ط. ١، ١٤٢٦هـ)

فحسن الخلق إذن اسم جامع يشمل جميع خصال الخير ، فقد كان نبينا محمد r يأمر بل عمل برّ يدخل النفع على الآخرين ، كما كان يعظم النكير على من يتعدى على غيره ، وينهى عن ذلك ، ويزجر عليه ، بل ويعاقب من يستحق العقوبة بذلك ، كما جاء عنه صريحاً في خطبته الفريد التي خطب بها الناس ووعظهم بها في أكبر مجمع شهده في ذلك الوقت وهو خطبة يوم النحر ، كما قال r : " ... إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام ، كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا .. " الحديث. (رواه البخاري ...)

وبهذا يتبين أن النبي r قد عني بجانب القيم الحضارية من جهتين : الحث على القيم الفاضلة والتحذير من القيم الرديئة والسافلة وما ذكر من الحث على معالي الأخلاق ومحاسن الشمائل ومكارم القيم إنما هو على سبيل الإجمال ، وأما على وجه التفصيل ، فهناك أحاديث كثيرة في الترغيب في القيم الحضارية الراقية ، نذكر شيئاً منها على سبيل المثال ومن ذلك :

- أمر بالعدالة : ومعناها : أن يعطي المرء ما عليه ، ويأخذ ما له . (الكليات ...) قال r : " المقسطون على منابر من نور عن يمين الرحمن ، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا " (رواه ...)
- وأمر بحفظ حقوق المرأة ، والتحذير من تضييعها : فقد جاء رجل إلى النبي r فقال : يا رسول الله ! من أحق الناس بحسن الصحبة ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : أبوك . (رواه ابن حبان بترتيب ابن بلبان ١٧٥/٢-١٧٦ رواه مسلم بنحوه بتكرار لفظ الأم ثلاثاً ، انظر شرح النووي ، ٣١٨/١٦) وعن ابن عمر رضي الله عنه : أن

النبي r رأى في بعض غزواته امرأة مقتولة ؛ فأنكر ذلك ، ونهى عن قتل النساء والصبيان " . (رواه أحمد ومالك وابن ماجه وابن حبان)

- وحث على السلام والمسالمة : والسلام هو أمل الشعوب في أقطار الدنيا بعد فعلت بهم ذكريات الحرب العالمية أفاعيلها ، وبعد أن باتت علائم ودلائل الحرب النووية القادمة تلوح في الأفق ، وكل هذا مخالف لما يدعو له الإسلام من كف الأذى ؛ ولهذا قال النبي r لليهود : " أسلموا تسلموا ، واعلموا أن الأرض لله ورسوله ، وإني أريد أن أجليكم من هذه الأرض ، فمن يجد منكم بماله شيئا فليبيعه " . (متفق على صحته) وقال للذي بعثه في سرية : " انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام ، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه ، فإنهم أجابوك لذلك فاقبل منهم وكفّ عنهم ، ثم ادعهم إلى ... وإلا فاستعن بالله وقاتلهم " (رواه ...)
- وأمر بحفظ الوقت ورغب فيه ، وحذر من إزجائه وتضييعه دون فائدة : وذلك في قوله : " لن تزولا قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع : عن عمره فيما أفناه ، وعن شبابه فيما أبلاه وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ، وعن علمه ما ذا عمل فيه " (رواه الترمذي ...) وأرشد إلى اغتنام الأوقات بفعل الصالحات فقال r : " بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم ، يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً ، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً ، يبيع دينه بعرض من الدنيا " . (رواه مسلم ...)
- وحث على الشجاعة ورغب فيها ، وكافأ من يتصف بها : فقال r : " المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير ، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجزن ، وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كذا وكذا لكان كذا وكذا ولكن قل قدّر الله وما شاء فعل ، فإن لو تفتح عمل الشيطان " (رواه ...) وقال في الحث على الشجاعة والإقدام : " من قتل قتيلاً فله فله سلبه " (رواه البخاري ومسلم) ؛ فحث على القوة والشجاعة بأن كافأ من قتل عدوا من الأعداء بأن جعله يملك ما يجده مع العدو تشجيعاً له .
- وأمر بالصدق والأمانة ، ولقب في حياته بالصادق لكمال هاتين الخصلتين فيه : قال r : " عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة ، ولا يزال الرجل يصدق ويتحر الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً ، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار ، ولا يزال الرجل يكذب ويتحر الكذب حتى يكتب عند

الله كذاباً " (رواه البخاري ...) وقال في الأمانة : " والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن . قالوا : من هو يا رسول الله ؟ قال : من لا يأمن جاره بوائقه " البخاري ...)

- كما قد حث على التعاطف بين المسلمين ، ورحمة بعضهم لبعض : فقال r : " الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا من الأرض يرحمكم من في السماء " . (رواه الترمذي وأبوداود) وقال : " الرحمة لا تنزع إلا من شقي " (رواه ابن حبان ...) وجاء أن الأقرع ابن حابس التميمي أبصر النبي r يقبل الحسن بن علي ، فقال : إن لي عشرة من الولد ما قبلت أحداً منهم ، فقال النبي r من لا يرحم الناس لا يرحمه الله عز وجل " (رواه مسلم ...)

وأما كرمه العملي الذي وجد ظاهرا في حياته اليومية ، وحفظته سيرته العطرة فيشهد به العدو قبل الصديق كما قال الكتاب الغربيون ذلك واعترفوا به مع شدة عداوتهم لدينه ، فإنه لا تزال الأيدي اليهودية الآثمة تحكم سيطرتها على وسائل الإعلام الكبرى ، ولا تألوا جهداً في استغلالها في السخرية من رسول الهدى r وتشويه صورة الإسلام ، ابتدءا من كبريات الصحف العالمية ، كالتايمز البريطانية التي أصبحت صحيفة صهيونية خالصة بعد أن اشتراها المليونير اليهودي " روبرت مردوخ " وكذلك شقيقتها الصنداى تايمز ، بالإضافة إلى المجلة الأسبوعية " ويك إند " التي تخصصت بالرسومات الكاركاتيرية التي تتهكم بالعرب في لندن ، وتظهرهم بأبشع صورة .

وتعتبر النيويورك تايمز من أشهر الصحف الأمريكية ، وقد اشتراها اليهودي أودلف أوش ، وتأتي الواشنطن بوست في المرتبة الثانية من الخضوع للصهيونية ، ونيوز ويك التي بلغ حجم توزيعها ٤،٥ مليون نسخة عام ١٩٨١م .

وقد بلغ من تفاقم السيطرة الصهيونية على دور النشر الفرنسية أن المفكر الشهير " رجاء جارودي " الذي كانت دور النشر الفرنسية تتسابق لنشر كتبه لم يجد دار نشر واحدة تتبنى نشر كتابه " بين الأسطورة الصهيونية والسياسة الإسرائيلية " الذي كتبه بعد إسلامه !!

(النفوذ اليهودي في الأجهزة الإعلامية لفؤاد الرفاعي بواسطة الرسول r في عيون غربية منصفة ص ٩٥)

كلها هذا لم يمنع أن يوجد كتاب غربيون يقولون الحقيقة ولو كانت مُرة ، ويعلونها مدوية ولو أغضبت بني جنسهم ومن ذلك :

- قال المؤرخ الأوروبي " جيمس ميتشنر " تحت عنوان : الشخصية الخارقة ، عن النبي r " ... وقد أحدث محمد r بشخصيته الخارقة للعادة ثورة في الجزيرة العربية ، وفي الشرق كله ، فقد حطم الأصنام بيده ، وأقام ديناً خالداً يدعو الناس إلى الإيمان بالله وحده " .
- ويقول الفيلسوف الفرنسي (كارديفو) " إن محمدًا كان هو النبي الملهم والمؤمن ، ولم يستطع أحد أن ينازعه المكانة العالمية التي كان عليها ، شعور المساواة والإخاء الذي أسسه بين أعضاء الكتلة الإسلامية كان يطبق عملياً حتى على النبي نفسه .
- ويقول الروائي الروسي والفيلسوف الكبير : تولتسوي : إن محمداً هو مؤسس ورسول ، كان من عظماء الرجال الذين خدموا المجتمع الإنساني خدمة جليلة ، ويكفيه فخراً أنه أهدى أمة برمتها إلى نور الحق جعلها تجنح إلى السكينة والسلام ، وتؤثر عيشة الزهد ومنعها من سفك الدماء وتقديم الضحايا البشرية ، وفتح لها طريق الرقي والمدنية ، وهو عمل عظيم لا يقدم عليه إلا شخص أوتي قوة ، ورجل مثله جدير بالاحترام والإجلال ".
- وكذلك الفيلسوف الإنجليزي توماس كارلايل : فقد خصص فصلاً لنبي الإسلام في كتابه " الأبطال وعبادة البطولة " سمى ذلك الفصل : البطل في صورة رسول : محمد – الإسلام " عد فيه النبي r واحداً من العظماء السبعة الذين أنجبهم التاريخ ، ورد على مزاعم المتعصبين حول النبي r فقال : يزعم المتعصبون من النصارى والملحدين أن محمداً لم يكن يريد بقيامه إلا الشهرة الشخصية ، ومفاخر الجاه والسلطان . كلا وأيم الله ! لقد كان في فؤاد ذلك الرجل الكبير ابن القفار والفلوات المتورد المقلتين العظيم النفس المملوء رحمة وخيراً وحناناً وبراً وحكمة وحجى وإربة ونهى ، أفكار غير الطمع الدنيوي ، ونوايا خلاف طلب السلطة والجاه ، وكيف لا وتلك نفس صافية ورجل من الذين لا يمكنهم إلا أن يكونوا مخلصين جادين ... ثم قال بعد ذلك – وإني لأحب محمداً لبراءة طبعه من الرياء والتصنّع " (الرسول r في عيون غربية منصفة ١٠٢-١٠٣)

والأمثلة على هذا أكثر من أن تحصر ، وكما قيل والحق ما شهدت به الأعداء ، وإن كنا لا نشك في صدق رسالته وكريم أخلاقه التي زكاه بها ربه سبحانه وتعالى .

المبحث الثالث

مفهوم القيم في الإسلام ، لغة ، واصطلاحاً

- **القيم :**

لغة :

في (قوم) عدة إطلاقات :

١- القيامُ نقيض الجلوس ، قام يَقُومُ قَوْماً وقِياماً وقَوْمة وقامةً ، والقَوْمةُ المرة الواحدة .

قال ابن الأعرابي : قال عبد لرجل أراد أن يشتريه : لا تشترني فإني إذا جعت أبغضت قَوْماً ، وإذا شبِعت أحببت نَوْماً أي أبغضت قياماً من موضعي . قال :

قد صُمْتُ رَبِّي فَتَقَبَّلْ صامتي * وقُمْتُ لَيْلي فتقبَّل قامَتي

أدْعُوك يا ربِّ من النارِ التي * أعْدَدْتَ للكُفَّارِ في القِيامةِ

وقال بعضهم إنما أراد قَوْمَتي وصَوْمَتي فأبدل من الواو ألفاً ، وجاء بهذه الأبيات مؤسَّسة وغير مؤسسة ، وأراد من خوف النار التي أعددت .

وأورد ابن بري هذا الرجز شاهداً على القَوْمة فقال :

قد قمت ليلي فتقبَّل قَوْمَتي * وصمت يومي فتقبَّل صَوْمَتي

ورجل قائم من رجال قُوَّمٍ وقُيَّمٍ وقِيَّمٍ وقُيَّامٍ وقِيَّامٍ وقَوْمٌ : قيل هو اسم للجمع ، وقيل جمع التهذيب ونساء قُيَّمٌ وقائمات أعرف .

والقامةُ : جمع قائم عن كراع . قال ابن بري رحمه الله : قد ترتجل العرب لفظة قام بين يدي الجمل فيصير كاللغو .

٢- ومعنى القِيام العَزْمُ ، كقول العماني الراجز للرشيد عندما همَّ بأن يعهد إلى ابنه قاسم :

قُل للإمامِ المُقْتَدَى بأمِّــــه *

ما قاسِمٌ دُونَ مَدَى ابن أُمِّه *

فَقَدْ رَضِيناهُ فَقُمْ فسَـــــمِّه *

أي : فاعْزِمْ ، ونُصَّ عليه ، وكقول النابغة الذبياني :

نُبِّئتُ حِصْناً وحَيّاً مِن بَني أَسَدٍ * قامُوا فقالُوا حِمانا غيرُ مَقْروبِ

أي عَزَموا فقالوا وكقول حسان بن ثابت :

علاما قامَ يَشْتُمُني لَئِيمٌ * كخِنْزِيرٍ تَمَرَّغَ في رَمادِ

معناه علام يعزم على شتمي ، وكقول الآخر:

لَدَى بابِ هِنْدٍ إذْ تَجَرَّدَ قائما *

ومنه قوله تعالى : " وإنه لما قامَ عبد الله يدعوه " (سور الجن ...) أي : لما عزم .

وقوله تعالى : " إذ قاموا فقالوا ربُّنا ربُّ السموات والأرض " أي عزَموا فقالوا .

٣- قال : وقد يجيء القيام بمعنى : المحافظة والإصلاح ، ومنه قوله تعالى : " الرجال قوّامون على النساء ... " (سورة النساء ...) وقوله تعالى : " إلا ما دمت عليه قائماً " (سورة آل عمران ...). أي : ملازماً محافظاً .

٤- ويجيء القيام بمعنى الوقوف والثبات ، يقال للماشي : قف لي ، أي : تحبَّس مكانَك حتى آتيك ، وكذلك قُم لي ، بمعنى قف لي ، وعليه فسّروا قوله سبحانه : " وإذا أظلم عليهم قاموا " (سورة البقرة ...) قال أهل اللغة والتفسير : قاموا هنا بمعنى وقفُوا وثبتوا في مكانهم غير متقدّمين ولا متأخرين ، ومنه : التَّوَقُّف في الأمر وهو الوقُوف عنده من غير مُجاوَزة له ، ومنه الحديث : " المؤمن وَقّافٌ متَأَنٍّ " (رواه ...) وعلى ذلك قول الأعشى :

كانت وَصاةٌ وحاجاتٌ لها كَفَفُ * لَوْ أنَّ صَحْبَكَ إذْ نادَيْتَهم وقَفُوا

أي : ثبتوا ولم يتقدَّموا ، ومنه قول هُدبة يصف فلاة لا يُهتدى فيها :

يَظَلُّ بها الهادي يُقلِّبُ طَرْفَه * يَعَضُّ على إبْهامِه وهو واقِفُ

أي : ثابت بمكانه لا يتقدَّم ولا يتأَخر.

قال : ومنه قول مزاحم :

أَتَعْرِفُ بالغَرَّيْنِ داراً تَأَبَّدَتْ * منَ الحَيِّ واستَنَّتْ عَليها العَواصِفُ

وقَفْتُ بها لا قاضِياً لي لُبانةً * ولا أنا عـــــنْها مُسْتَمِرٌّ فَصارِفُ

قال : فثبت بهذا ما تقدم في تفسير الآية ، قال : ومنه : قامت الدابة ، إذا وقفت عن السير ، وقام عندهم الحق أي : ثبت ولم يبرح ، ومنه قولهم : أقام بالمكان هو : بمعنى الثبات ، ويقال قام الماء إذا ثبت متحيراً لا يجد مَنْفَذاً ، وإذا جَمد أيضاً . قال : وعليه فسّر بيت أبي الطيب :

وكذا الكَريمُ إذا أَقام بِبَلْدةٍ سالَ النُّضارُ بها *

وقام الماء أي ثبت متحيراً جامداً ، وقامَت السُّوق إذا نفَقت ، ونامت إذا كسدت ، وسُوق قائِمة نافِقة ، وسُوق نائِمة كاسِدة ، وقاوَمْتُه قِواماً قُمْت معه ، صحَّت الواو في قِوام لصحتها في قاوَم ، والقَوْمةُ

ما بين الركعتين من القِيام ، قال أبو الدُّقَيْش أُصلي الغَداة قَوْمَتَيْنِ ، والمغرب ثلاث قَوْمات ، وكذلك قال في الصلاة والمقام موضع القدمين ، قال :

هذا مَقامُ قَدَمَي رَباحِ * غُدْوَةَ حتَّى دَلَكَتْ بَراحِ

ويروى براحِ ، والمُقامُ والمُقامةُ الموضع الذي تُقيم فيه ، والمُقامة بالضم الإقامة والمَقامة بالفتح المجلس والجماعة من الناس ، قال : وأما المَقامُ والمُقامُ فقد يكون كل واحد منهما بمعنى الإقامة ، وقد يكون بمعنى موضع القِيام لأنك إذا جعلته من قام يَقُوم فمفتوح ، وإن جعلته من قام يُقِيمُ فَمضْموم ، فإن الفعل إذا جاوز الثلاثة فالموضع مضموم الميم ؛ لأنه مُشَبَّه ببنات الأربعة ، نحو دَحْرَجَ ، وهذا مُدَحْرَجُنا ، وقوله تعالى : " لا مقَامَ لكم " (سورة الأحزاب ...) أي : لا موضع لكم ، وقُرئ لا مُقام لكم بالضم ، أي : لا إقامة لكم ، و " حَسُنت مُستقَرّاً ومُقاماً " أي : موضعاً ، وقول لبيد :

عَفَتِ الدِّيارُ مَحلُّها فَمُقامُها * بِمنىً تأَبَّدَ غَوْلُها فَرِجامُها

يعني الإقامة ، وقوله عزَّ وجل : " كم تركوا من جنات وعيون وزُروع ومَقام كَريم " (سورة الدخان ...) ، قيل : المَقامُ الكريم هو المِنْبَر ، وقيل : المنزلة الحسَنة ، وقامت المرأة تَنُوح أي : جعَلَت تنوح ، وقد يُعْنى به ضدّ القُعود ؛ لأن أكثر نوائح العرب قِيامٌ ، قال لبيد :

قُوما تَجُوبانِ مَعَ الأَنْواح *

وقوله :

يَوْمُ أَدِيـــمِ بَقَّة الشَّرِيمِ * أَفضَلُ من يومِ احْلِقِي وقُومي

إنما أراد الشدّة فكنى عنه باحْلِقِي وقومي ؛ لأن المرأة إذا مات حَمِيمها أو زوجها أو قُتل حلَقَت رأسها ، وقامَت تَنُوح عليه ، وقولهم : ضَرَبه ضَرْبَ ابنةِ اقْعُدي وقُومي ، أي : ضَرْبَ أمة سميت بذلك لقُعودها وقِيامه في خدمة مواليها ، وكأنَّ هذا جعل اسماً وإن كان فِعْلاً ؛ لكونه من عادتها كما قال : " إن الله ينهاكم عن قِيلٍ وقالٍ " (رواه البخاري ومسلم ...) وأَقامَ بالمكان إقاماً وإقامةً ومُقاماً وقامةً ؛ الأخيرة عن كراع : لَبِثَ ، قال ابن سيده : وعندي أن قامة اسم كالطّاعةِ والطّاقةِ ، التهذيب : أَقَمْتُ إقامةً فإذا أَضَفْت حَذَفْت الهاء ، كقوله تعالى : " وإقام الصلاةِ وإيتاء الزكاةِ " (سورة النور ...) الجوهري : وأَقامَ بالمكان إقامةً والهاء عوض عن عين الفعل ؛ لأن أصلَه إقْواماً وأَقامَه من موضعه وأَقامَ الشيء أَدامَه ، من قوله تعالى : " ويُقِيمون الصلاةَ " ، وقوله تعالى : " وإنَّها لبِسَبيل مُقِيم " (سورة الحجر ...) أراد : إن مدينة قوم لوط لبطريق بيِّن واضح ، هذا قول الزجاج .

والاسْتِقامةُ : الاعْتدالُ ، يقال اسْتَقامَ له الأمر ، وقوله تعالى : " فاسْتَقِيمُوا إليه " أي : في التَّوَجُّه إليه دون الآلهةِ ، وقامَ الشيءُ واسْتقامَ اعْتدَل واستوى ، وقوله تعالى : " إن الذين قالوا ربُّنا الله ثم اسْتَقاموا " (سورة فصلت ...) ، معنى قوله : اسْتَقامُوا : عملوا بطاعته ، ولزموا سُنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وقال الأسود بن مالك : ثم استقاموا لم يشركوا به شيئاً ، وقال قتادة : استقاموا على طاعة الله ، قال كعب بن زهير :

فَهُمْ صَرَفُوكم حينَ جُزْتُمْ عن الهُدَى * بأَسْيافِهِمْ حَتَّى اسْتَقَمْتُمْ على القِيَمْ

قال القِيَمُ : الاسْتِقامةُ ، وفي الحديث : " قل آمَنتُ بالله ثم اسْتَقِمْ " (رواه ...) فسر على وجهين : قيل : هو الاسْتقامة على الطاعة ، وقيل : هو ترك الشِّرك ، أبو زيد : أَقمْتُ الشيء وقوَّمْته فَقامَ ، بمعنى : اسْتقام ، قال : والاسْتِقامة اعتدال الشيء ، واسْتِواؤه ، واسْتَقامَ فلان بفلان أي : مدَحه وأثنى عليه ، وقامَ مِيزانُ النهار إذا انْتَصفَ ، وقام قائمُ الظَّهيرة . قال الراجز

وقامَ مِيزانُ النَّهارِ فاعْتَدَلْ *

والقَوامُ العَدْل ، قال تعالى : " وكان بين ذلك قَواماً " (سورة الفرقان ...) وقوله تعالى : " إنّ هذا القرآن يَهْدِي للتي هي أَقْومُ " (سورة الإسراء ...) ، قال الزجاج معناه : للحالة التي هي أَقْوَمُ الحالاتِ ، وهي تَوْحِيدُ الله وشهادةُ أن لا إله إلا الله والإيمانُ برُسُله والعمل بطاعته ، وقَوَّمَه هو؛ واستعمل أبو إسحق ذلك في الشِّعر فقال : استقامَ الشِّعر اتَّزَنَ ، وقَوّمَ دَرْأَه : أزال عِوَجَه ، عن اللحياني وكذلك أقامَه ، قال :

أَقِيمُوا بَني النُّعْمانِ عَنَّا صُدُورَكُم * وإلا تُقِيموا صاغِرِينَ الرُّؤوسا

عدَّى أَقِيمُوا بعن ؛ لأن فيه معنى نَحُّوا ، أو أزيلُوا ، وأما قوله : وإلاَّ تُقِيموا صاغرين الرُّؤوسا : فقد يجوز أن يُعْنى به ما عُني بأَقِيموا ، أي : وإلا تُقيموا رؤوسكم عنا صاغرين فالرُّؤوسُ على هذا مفعول بتُقيموا ، وإن شئت جعلت أقيموا هنا غير متعدّ بعن ؛ فلم يكن هنالك حرف ولا حذف ، والرُّؤوسا حينئذ منصوب على التشبيه بالمفعول ، أبو الهيثم : القامةُ جماعة الناس والقامةُ أيضاً قامةُ الرجل وقامةُ الإنسان وقَيْمَتُه وقَوْمَتُه وقُومِيَّتُه وقَوامُه شَطاطُه ، قال العجاج :

أَما تَرَيني اليَوْمَ ذا رَثِيَّهْ فَقَدْ *

أَرُوحُ غيرَ ذي رَذِيَّـــــهْ *

صُلْبَ القَناةِ سَلْهَبَ القُومِيَّهْ *

وصَرَعَه من قَيْمَتِه وقَوْمَتِه وقامَته بمعنى واحد ، حكاه اللحياني عن الكسائي ، ورجل قَوِيمٌ وقَوَّامٌ حَسَنُ القامة ، وجمعهما قِوامٌ ، وقَوام الرجل قامته ، وحُسْنُ طُوله والقُومِيَّةُ مثله ، وأنشد ابن بري رجز العجاج :

أيامَ كنتَ حسَنَ القُومِيَّهْ * صلبَ القناة سَلهبَ القَوْسِيَّهْ

والقَوامُ حُسْنُ الطُّول يقال هو حسن القامةِ والقُومِيَّة والقِمّةِ ، الجوهري : وقامةُ الإنسان قد تُجمَع على قاماتٍ وقِيَمٍ ، مِثْل تاراتٍ وتِيَر، قال : وهو مقصور قيام ، ولحقه التغيير لأجل حرف العلة ، وفارق رَحَبة ورحاباً ، حيث لم يقولوا : رِحَبٌ ، كما قالوا : قِيَمٌ وتِيَرٌ ، والقُومِيَّةُ القَوام ، أو القامةُ. الأصمعي : فلان حسن القامةِ والقِمّة والقُوميَّة بمعنى واحد ، وأنشد :

فَتَمَّ مِنْ قَوامِها قُومِيّ *

ويقال : فلان ذُو قُومِيَّةٍ على ماله وأمْره ، وتقول : هذا الأمر لا قُومِيَّة له ، أي : لا قِوامَ له ، والقُومُ القصدُ ، قال رؤبة :

واتَّخَذَ الشَّد لهنَّ قُوما *

وقاوَمَه في المُصارَعة وغيرها ، وتقاوموا في الحرب أي : قام بعضهم لبعض ، وقِوامُ الأمر بالكسر نِظامُه وعِماده ، أبو عبيدة : هو قِوامُ أهل بيته ، وقِيامُ أهل بيته ، وهو الذي يُقيم شأنهم ، من قوله تعالى : " ولا تُؤتوا السُّفهاء أموالكم التي جَعل الله لكم قِياماً " (سورة النساء ...) ، وقال الزجاج قرئت جعل الله لكم قِياماً وقِيَماً ، ويقال : هذا قِوامُ الأمر ومِلاكُه الذي يَقوم به ، قال لبيد :

أفَتِلْكَ أمْ وَحْشِيّةٌ مَسْبُوعَةٌ * خُذِلَتْ وهادِيةُ الصِّوار قِوامُها ؟

قال : وقد يفتح ، ومعنى الآية أي : التي جعلها الله لكم قِياماً ، تُقِيمكم فتَقُومون بها قِياماً ، ومن قرأ قِيَماً فهو راجع إلى هذا ، والمعنى : جعلها الله قِيمة الأشياء ؛ فبها تَقُوم أُمورُكم ، وقال : الفراء : التي جعل الله لكم قِياماً يعني : التي بها تَقُومون قياماً وقِواماً ، وقرأ نافع المدني : " قِيَماً " قال : والمعنى واحد ، ودِينارٌ قائم إذا كان مثقالاً ، سَواء لا يَرْجح ، وهو عند الصيارفة ناقص حتى يَرْجَح بشيء فيسمى مَيّالاً ، والجمع قُوَّمٌ وقِيَّمٌ ، وقَوَّمَ السِّلْعة واسْتَقامها : قَدَّرها ، وفي حديث عبد الله بن عباس : " إذا اسْتَقَمْت بنَقْد فبِعْتَ بنقد فلا بأس به ، وإذا اسْتَقَمْت بنقد فبعته بِنَسيئة فلا خير فيه فهو مكروه " ، قال أبو عبيد : قوله : إذا استقمت يعني : قوَّمت . وهذا كلام أهل مكة ، يقولون : اسَتَقَمْتُ المَتاع أي قَوَّمْته ، وهما بمعنى ، قال : ومعنى الحديث : أن يدفَعَ الرجلُ إلى الرجل الثوب فيقوّمه مثلاً بثلاثين درهماً ، ثم يقول : بعه ، فما زاد عليها فلك ، فإن باعه بأكثر من ثلاثين بالنقد فهو

جائز، ويأخذ ما زاد على الثلاثين ، وإن باعه بالنسيئة بأكثر مما يبيعه بالنقد فالبيع مردود ولا يجوز ، قال أبو عبيد : وهذا عند من يقول بالرأي لا يجوز ؛ لأنها إجارة مجهولة ، وهي عندنا معلومة جائزة ؛ لأنه إذا وَقَّت له وَقتاً فما كان وراء ذلك من قليل أو كثير فالوقت يأتي عليه ، قال وقال : سفيان بن عيينة بعدما روى هذا الحديث : يَسْتَقِيمه بعشرة نقداً فيبيعه بخمسة عشر نسيئة ؛ فيقول أُعْطِي صاحب الثوب من عندي عشرة ، فتكون الخمسة عشر لي ، فهذا الذي كره ، قال إسحاق قلت لأحمد : قول ابن عباس : إذا استقمت بنقد فبعت بنقد ...الحديث ، قال : لأنه يتعجّل شيئاً ويذهب عَناؤه باطلاً .

قال إسحاق : كما قال قلت فما المستقيم ؟ قال الرجل يدفع إلى الرجل الثوب فيقول بعه بكذا فما ازْدَدْتَ فهو لك قلت فمن يدفع الثوب إلى الرجل فيقول بعه بكذا فما زاد فهو لك ؟ قال لا بأس ، قال إسحاق : كما قال ، والقِيمةُ واحدة القِيَم ، وأصله الواو ؛ لأنه يقوم مقام الشيء ، والقيمة ثمن الشيء بالتَّقْوِيم ، تقول : تَقاوَمُوه فيما بينهم ، وإذا انْقادَ الشيء واستمرّت طريقته فقد استقام لوجه ، ويقال : كم قامت ناقتُك ؟ أي كم بلغت ؟ وقد قامَتِ الأمةُ مائة دينار أي بلغ قيمتها مائة دينار، وكم قامَتْ أمَتُك أي بلغت ، والاستقامة التقويم ؛ لقول أهل مكة استقَمْتُ المتاع أي قوَّمته ، وفي الحديث : " قالوا يا رسول الله لو قوَّمْتَ لنا فقال الله هو المُقَوِّم " (رواه ...) أي لو سَعَّرْت لنا ، وهو من قيمة الشيء أي حَدَّدْت لنا قيمتها ، ويقال : قامت بفلان دابته إذا كلَّتْ وأَعْيَتْ فلم تَسِر، وقامت الدابة وَقَفَت ، وفي الحديث : " حين قام قائمُ الظهيرة " (رواه ...) أي قيام الشمس وقت الزوال ، من قولهم : قامت به دابته ، أي : وقفت ، والمعنى : أن الشمس إذا بلغت وسَط السماء أَبْطَأت حركةُ الظل إلى أن تزول ؛ فيحسب الناظر المتأمل أنها قد وقفت وهي سائرة ، لكن سيراً لا يظهر له أثر سريع كما يظهر قبل الزوال وبعده ، ويقال لذلك الوقوف المشاهد قام قائم الظهيرة ، والقائمُ قائمُ الظهيرة ، ويقال : قام ميزان النهار فهو قائم ، أي : اعْتَدَل ، ابن سيده : وقام قائم الظهيرة إذا قامت الشمس وعقَلَ الظلُّ ، وهو من القيام ، وعَيْنٌ قائمة ذهب بصرها وحدَقَتها صحيحة سالمة ، والقائم بالدِّين المُسْتَمْسِك به الثابت عليه ، وفي الحديث : إنَّ حكيم بن حِزام قال : بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا أخِرَّ إلا قائماً " ، قال له النبي صلى الله عليه وسلم : " أمّا من قِبَلِنا فلا تَخِرُّ إلا قائماً " (رواه ...) أي : لسنا ندعوك ولا نبايعك إلا قائماً ، أي : على الحق. قال أبو عبيد معناه بايعت أن لا أموت إلا ثابتاً على الإسلام ، والتمسُّك به وكلُّ من ثبت على شيء وتمسك به فهو قائم عليه ، وقال تعالى : " ليْسُوا سَواء من أهل الكتاب أُمَّةٌ قائمةٌ " (سورة آل عمران ...) إنما هو من

المُواظبة على الدين والقيام به ، الفراء : القائم المتمسك بدينه ، ثم ذكر هذا الحديث ، وقال الفراء : أُمَّة قائمة ، أي : متمسكة بدينها ، وقوله عز وجل : " لا يُؤَدِّه إليك إلا ما دُمت عليه قائماً " (سورة آل عمران ...) أي : مُواظِباً مُلازماً ، ومنه قيل في الكلام للخليفة هو القائِمُ بالأمر ، وكذلك فلان قائِمٌ بكذا إذا كان حافظاً له متمسكاً به ، قال ابن بري : والقائِمُ على الشيء الثابت عليه ، وعليه قوله تعالى : " من أهل الكتاب أُمةٌ قائمةٌ " أي مواظِبة على الدين ثابتة ، يقال : قام فلان على الشيء إذا ثبت عليه وتمسك به ، ومنه الحديث : " اسْتَقِيموا لقُريش ما اسْتَقامُوا لكم فإنْ لم يَفْعَلوا فضَعُوا سيُوفَكم على عَواتِقكم فأَبِيدُوا خضْراءهم " (رواه ...) أي دُوموا لهم في الطاعة واثْبُتوا عليها ما داموا على الدين ، واثبتوا على الإسلام ، يقال : قامَ واسْتَقامَ ، كما يقال أَجابَ واسْتجابَ .

قال الخطابي : الخَوارج ومن يَرى رأيهم يتأَوَّلونه على الخُروج على الأئمة ، ويحملون قوله : " ما اسْتقاموا لكم على العدل في السِّيرة " وإنما الاستقامة ههنا الإقامة على الإسلام ، ودليله في حديث آخر : " سيَلِيكم أُمَراءُ تَقْشَعِرُّ منهم الجلود ، وتَشْمَئِزُّ منهم القلوب " ، قالوا يا رسول الله : أَفلا نُقاتلهم ؟ قال : لا ما أَقاموا الصلاة " ، وحديثه الآخر : " الأئمة من قريش أَبرارُها أُمَراءُ أَبرارِها وفُجَّارُها أُمَراءُ فُجَّارِها " ومنه الحديث : " لو لم تَكِلْه لقامَ لكم أي دام وثبت " والحديث الآخر : " لو تَرَكَتْه ما زال قائماً " والحديث الآخر " ما زال يُقِيمُ لها أُدْمَها " وقائِمُ السيف مَقْبِضُه وما سوى ذلك فهو قائمة نحو قائمةِ الخِوان والسرير والدابة ، وقَوائِم الخِوان ونحوها ما قامت عليه .

الجوهري : قائمُ السيف وقائمتُه مَقْبِضه ، والقائمةُ واحدة قوائم الدَّوابّ ، وقوائم الدابة أَربَعُها وقد يستعار ذلك في الإنسان . (ابن منظور لسان العرب ١٢ / ٤٩٦ و معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٤٣/٥ مادة " قوم " وذكر أنها لا تخرج عن أصلين : أحدهما : جماعة ناس ، أو على انتصاب أو عزم ...)

وهذا يدل على أن إطلاق لفظ القيم له عدة معان ، ويهمنا منها : أنها تأتي بمعنى : الاستقامة ، وبمعنى الثمن الذي يقوم به المتاع .

القيم : اصطلاحا :

تعددت الآراء في تحديد مفهوم القيم في الاصطلاح ، لكنها لا تبعد كثير عن المعنى اللغوي الذي يربط القيم بالاستقامة والاعتدال والاستواء .

ويرى بعض الباحثين أن العرب لم تستعمل هذه الكلمة مفردة أو جمعاً بالمفهوم المعاصر ؛ لأنها استعملت عند المسلمين بمعنى الأخلاق ، سواء كانت حسنة أم غير حسنة .

لفظ القيمة يدل على : ما يقوم به الشيء ويتكون منه ويستدل به على هيئته .

وفصل بعضهم بين القيم والأخلاق ، لأن الأخلاق مرتبطة بالصفات الطبيعية في الإنسان فطرة وسجية ، والصفات المكتسبة التي تعتبر عادة في سلوك الإنسان ، غير أننا لا نستطيع فصل القيم في الإسلام عن مصادرها العقدية والإيمانية والخلقية فطرية كانت أم مكتسبة .

والقيم تمثل حاجة إنسانية يتعامل معها العلماء باختلاف تخصصاتهم ؛ لأنها في النهاية تمثل الإطار الحضاري الذي يضبط عملية التفاعل بين الفرد والمجتمع ، وتمثل الضوابط والمعايير التي تحكم العلاقات وتوطدها وتوطّدها بين العبد وربه أو بينه وبين نفسه أو بينه وبين مجتمعه ومحيطه ؛ ولذلك أصبحت القيم هي الأساس المحرك للعملية التربوية في كل مجتمع ؛ لأنها تؤثر – كما قلنا- في توجيه النشاط الإنساني ، سواء على المستوى الديني أم الثقافي أو حتى التكنلوجي ؛ لأن حاجة البشرية ومستقبلها تعتمد على مدى تفعيلها للقيم الخيّرة والحرص عليها أكثر من حاجتها إلى التكنلوجيا التي تفقد قيمتها عندما تكون مفرغة من القيم والأخلاق أو بعيدة عنها ؛ لأن عدم التزام المجتمع الإنساني بأنساق قيمية تحدد مساراتها وتضبطها وتتعامل بها هو الذي يؤدي إلى مظاهر الاضطراب وفقدان الأمن الاجتماعي والنفسي للمجتمع الإنساني .

أما على المستوى الفردي فإن القيم هي التي تحدد معالم شخصية الإنسان وتساعده على بناء نفسه وتحديد أهدافه ، كما تمثّل له الإطار المرجعي الذي يحكم به سلوكه حتى يصل إلى مستوى حديث : " البر حسن الخلق ، والإثم ما حاك في نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس " (رواه مسلم ...) ؛ لأن تفعيل القيم هي التي توجه اختيارات الإنسان وتعصمه من الوقوع في الإثم والانحراف.

أما بالنسبة للمجتمع فإن تفعيلها يحفظ للمجتمع عوامل استقراره النفسي والاجتماعي والأمني من تماسك وتضامن و تعاون وإخاء ومحبة وتماسك ، وتنمية وازدهار وعدل ومساواة لاسيما مع حاجة الإنسان المعاصر إلى الإحساس بالذات والهوية حيث تشابكت المصالح وتلاشت الحدود بين الثقافات والحضارات ، وأصبحت الحاجة ملحة في المجتمع الإنساني إلى تفعيل القيم الإيجابية والمحافظة عليها ومعالجة المعوقات التي تقف في سبيل الإبقاء عليها. (تفعيل القيم الحضارية في السنة النبوية . السبل والمعوقات . أ. د. عباس محجوب ، ص٢٠٠، ضمن الندوة العلمية الثالثة في دبي).

المبحث الرابع

مفهوم القِيَم في الفكر الغربي المعاصر

لكل مجتمع من المجتمعات نظرته التي يمليها عليه دينه وعقيدته ومذهبه ، ومن المسائل التي تأثرت بهذا الأمر وكان لها تأثير كبير في تباين المضمون والنتائج على أرض الواقع ما يسمى بمصطلح : القيم والمبادئ .

يختلف الغربيون في تحديد مفهوم القيم ، بل بعضهم يشعر بغموض هذا المفهوم لديهم ، يقول رالف بارتن بيري : " والحقيقة أنه لا يوجد للقيمة معنى ثابت عام .. فمختلف الناس يعنون أشياء مختلفة في سياقات مختلفة "

ومصطلح القيم في الفكر الغربي مصطلح جديد لا يتجاوز القرن التاسع عشر الميلادي ، وإن كان موضوعه موجوداً في الفلسفة والأديان منذ القدم .

تعددت التعريفات لمصطلح القيمة بتعدد المذاهب والمدارس العلمية المتنوعة ، فكل مدرسة تنظر في تعريفها من وجهة نظر مختلفة ؛ وذلك تبعاً لمذهبه الذي ينتمي إليه .

ففي المجال الاقتصادي : يعرف علماء الاقتصاد عادة القيمة بأنها : قيمة التبادل ، والقيمة بهذا المعنى يقصد بها السعر المقدر للسلعة ، ومع ذلك يميز بين القيمة والسعر على أساس أن القيمة حقيقية ، بينما السعر اعتباري ، بحسب التراضي بين المتبادلين للسلعة ، ولهذا قد تكون أكبر أو أقل من السعر .

وأما في المجال السياسي : فإن القيمة تعني : المقاييس أو المبادئ التي يمكن الاختيار من خلالها بين البدائل في مجرى العقل . (الدراسات العالمية للقيم في المجال السياسي ص٣-٤، نقلاً عن القيم بين الغرب والإسلام ص٢٠)

أما في مجال علم النفس : فقد اهتم علماء النفس بدراسة القيم كل بحسب اتجاهه ومدرسته التي ينتمي إليها ، واتضح أن هناك مفاهيم للقيمة تضم جوانب معينة تتعلق بموضوعات معينة ، وقد تراوحت بين التحديد الضيق على أنها : مجرد اهتمامات أو رغبات غير ملزمة إلى تحديدات واسعة بحيث يراها البعض معايير مرادفة للثقافة ككل وبين المعنى الواسع . (القيم في العملية التربوية ص١٠-١٢ بواسطة القيم بين الإسلام والغرب ص٢١)

ومن أجمع ما عرف به علماء النفس القيم ما يلي : أنها : ذلك الجانب من الدافعية الذي يشير إلى المعايير الشخصية والثقافية . أو هي : التوجه الاختياري نحو التجربة والذي يحتوي التزاماً عميقاً ،

أو هو الرفض الذي يؤثر في نظام الاختيار بين بدائل ممكنة في فعل ، أو هي المعايير التي تشكل وتحقق الإرضاء القوي لرغبات وحاجات الفرد الملحة . (القيم بين الإسلام والغرب ٢١)

أما في مجال علم النفس الاجتماع : فقد عرفت القيم بأنها : معيار اجتماعي ذو صبغة انفعالية قوية وعامة تتصل من قريب بالمستويات الخلقية التي تقدسها الجماعة ويمتصها الفرد من بيئته الاجتماعية الخارجية ، ويقيم منها موازين يزن بها أفعاله ويتخذها هادياً ومرشداً . (علم النفس الاجتماعي . لفؤاد البهي بواسطة القيم بين الإسلام والغرب ص ٢٠)

وأما مجال علم الاجتماع و التربية : فقد عرّفت القيم بأنها : محطات ومقاييس نحكم بها على الأفكار والأشخاص والأشياء والأعمال والموضوعات والمواقف الفردية والجماعية من حيث حسنها وقيمتها والرغبة بها ، أو من حيث سوؤها وعدم قيمتها وكراهيتها ، أو في منزلة معينة ما بين هذين الحدين . (المرجع السابق)

*** الموقف من المفهوم القيمي عند أهل الفكر الغربي المعاصر :**

بعد هذا العرض لطائفة من الكتاب الغربيين متعددي الأفكار والاتجاهات نأتي على الكلام عن هذه الأقوال في معرض النقد والتقييم ، والنظر في مدى صلاحيتها ومطابقتها للحق والصواب :
اتضح من العرض السابق للتعريفات التي أبداها أولئك الكتاب أن مفكري الغرب يحملون تخبطاً واختلافاً وتبايناً في وجهات النظر حول هذا المفهوم ، ومدى ما يكتنف بعض التعريفات من الإبهام والغموض ، ولكنهم مع ذلك تكاد كلمتهم تجتمع على رابط يربط كل التعريفات وهو :

أن القيم ما يتميز به الشيء عملاً أم شخصياً أم نظاماً من صفات تجعله مستحقاً للتقدير والثناء أو الذم والاحتقار ، فهي بذلك صفات تكسب المتعلق بها قيمة بسبب اتصافه بها . (مرجع سابق)

المبحث الخامس

مقارنة بين مفهوم القيم في الإسلام والفكر الغربي

عرضنا فيما سبق المنهج الإسلامي الذي تقوم عليه قيمه ومبادئه ، وفي المقابل عرضنا نقيض ذلك وهي المبادئ التي يقوم عليها الفكر الغربي المعاصر ، وفي هذا نحاول المقارنة بين المنهجين واستخلاص الفروق بينهما بإنصاف ، وتتمثل هذه الفروقات في عدة نقاط كما يلي :

١- إن هذه المبادئ والقيم الحضارية التي نادى وينادي بها الإسلام جاءت كاملة شاملة في تعاليمه ، بينما جاءت ناقصة بتراء عند الأمم الأخرى .

فاليهود – مثلاً – تتطرف في اتجاه المطالب المادية للإنسان ، بينما نجد في المقابل النصرانية تتطرف باتجاه المطالب الروحية ، وكذلك الحال بالنسبة لبقية الأديان والمذاهب ، فمنها ما يحرم الجسد من حقوقه الطبيعية ، ومنها ما يغرقه في الإباحية والانحلال .

٢- إن القيم التي نادى بها الإسلام صافية لم تمتزج بقيم أخرى من قيم الجاهلية فتشوهها ، بينما هي تلوثت بالفلسفات المادية والتفسيرات الأرضية عند الأمم الأخرى فأفسدتها.

٣- هذه المبادئ في الشريعة الإسلامية وجدت بارزة أشد البروز في حياة المصطفى **r** وما تلاه من عهود ، بينما هي لم تطبق تطبيقاً صحيحاً كاملاً عند الأمم الأخرى ، اللهم إلا في فترات محددة من حياة أصحابها فقط ، وسرعان ما كان الأتباع يشوهون تلك المبادئ أو يحرفونها أو يستبدلونها في حياة أصحابها ، فاليهود مثلاً اتخذوا العجل في حياة موسى عليه السلام وهو يناجي ربه ! وأخوه هارون عليه السلام ماثل بينهم ، والنصارى قالوا ما قالوا بحق المسيح ، وأشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً ، وإذا كان هذا قد حصل لليهودية والنصرانية وهما من الشرائع السماوية الثلاث فما بالك ببقية المذاهب والأديان. (القيم الحضارية العليا ص٦)

٤- أن القيم الإسلامية تتميز بأنها مستمدة من شرع الله القيم ، وتوزن بميزان الكتاب والسنة وليس بميزان الفكر البشري الضعيف القاصر ، أو بميزان التفاعل البشري مع البيئة الاجتماعية غير المنضبطين بضوابط الإسلام وما نتج عنها من خبرات فردية واجتماعية .

٥- المفهوم الإسلامي للقيم يتميز بالغموض والإيهام والتخبط الواضح في كثير من عناصره كما أكد على ذلك عدد من الباحثين الغربيين أنفسهم ، حتى إن بعض علماء النفس دعوا بكل

وضوح وصراحة إلى استبعاد موضوع القيمة من ميدان الدراسات النفسية ، وطالب غيرهم من العلماء بالتنصل من دراسة القيم .

والعكس بالعكس ؛ فهناك من بينهم من طغى عليه نظرة القيم فقدمها على من سواها من العلوم حتى أصبحت الفلسفة لديه هي علم القيم مقابل العلوم الحسية الأخرى ، ورأى سيادة القيمة بصفتها تصور أسمى وأقصى في الفلسفة . (القيم بين الإسلام والغرب ص٢٣)

وهنا فروق كثيرة تبدون من خلال التأمل في كلا النظرتين ، النظرة الإسلامية والنظرة الغربية لتلك القيم والمبادئ.

وأهم تلك الفوارق بين النظرتين هو : أن النظرة الإسلامية مبنية على المنهج الشرعي المستقى من كتاب الله وسنة رسوله r وهما مصدران معصومان لا يمكن أن يتطرق إليهما شيء من الخلل أو الضعف أو الانحراف ، بخلاف تلك القيم الأرضية التي تبني أسسها على العقول البشرية القاصرة التي تخفى عليها المآلات ، ولم تعصم من الآفات التي تطرأ على عقول عموما.

المبحث السادس

مفهـوم القيم فـي الفـكر الفلسـفي

القيم من وجهة نظر الفلسفات الغربية الوضعية قسّمت إلى قسمين :

- اتجاه ذاتي داخلي : ويرجع هذا الاتجاه والمعيار إلى قوة داخلية (ذاتية) فطرية في الإنسان بها يميز بين السلوك الأخلاقي وغير الأخلاقي ، وتأخذ تلك القوة المميزة أسماء مختلفة عند أهلها وإن اتفقوا على مضمونها .

فمنهم من يقول إنها ظن فهي قوة فطرية يميز بها الإنسان بين الخير والشر ، ومنهم من يقول إنها الضمير ، ومنهم من يقول بالعقل وهم أصحاب المذهب العقلي الذين يرون أن العقل هو القوة الإدراكية الوحيدة التي تميز بين الخير والشر في السلوك ، وترجع أصول هذا المذهب إلى فلاسفة الإغريق كسقراط وأفلاطون .

- أما الاتجاه الثاني : وهو الاتجاه الخارجي : فهو الذي يقيس الأعمال الأخلاقية التي لا تمت إلى باطن الإنسان بصلة ، وقد انقسم أنصار هذا الاتجاه إلى مذاهب مختلفة : كالمذهب البراجماتي الأمريكي الذي يقيس الأعمال الأخلاقية بمدى ما يقدم من نفع أو نجاح عملي ، مادياً أو معنوياً ، وسواء أكان هذا النفع خاصاً بالفرد أم بالمجتمع .

وعلى رأي (جون ديوي) لا يوجد خيرية قصوى ولا شريّة مطلقة ، بل هناك عدة مواقف كل موقف منها يتسم بخيرية وشرية لا تتشابه مع الموقف الآخر وإن القيم أساسها العادات والخبرة.

وهناك فلسفات أخرى تدور في فلك هذين التيارين وتعود إليهما ، وفيما يلي نعرض لتلك الفلسفات :

- الفلسفة المثالية : وهذه الفلسفة تأريخها مرتبط بزعمي الفلسفة اليونانية : سقراط وأفلاطون ، فمن ذلك الزمن إلى العصر الحديث عصر : باركلي وكانت وهيجل ، أما في عصرنا الحاضر فترتبط بـ : كروتشه وجنتلي وكارلايل وغيرهم ، وقد تعددت المذاهب في التاريخ الفلسفي المثالي تحت مسميات مرتبطة بالفلاسفة الذين سبق ذكرهم.

ونظر الفلسفة المالية للقيم : تقوم على أن القيم مطلقة غير متغيرة ، فالخير والحق والجمال لا تتغير بصورة أساسية من جيل إلى جيل ، أو من مجتمع إلى مجتمع ، بل تظل ثابتة في جوهرها ، فليست من صنع البشر بل هي جزء من طبيعة الكون ذاته . (فلسفة القيم التربوية ١٢٧ ، وانظر في نظرية الخير : الفلسفة الأخلاقية ص ٢٠)

وهذه الفلسفة تعتمد بشكل كبير على الأساس القيمي الذي وضعه أفلاطون ، وهو يتمثل في المثلث الذي يجمع : الحق والخير والجمال ، وهو ما يسمى بالقيم العليا .

وقد جعل أفلاطون الخير هو المثل الأعلى وجعل سائر المثل تستمد وجودها وقوتها منه .

ويعتقد أفلاطون أن الفضائل مهما تعددت فهي ترجع إلى : قيمة الخير وتصد عنه ، ويرى بأنه يكفي الإنسان أن يكون على علم بالقيم الأخلاقية حتى يكون سلوكه فاضلاً ، فالسلوك عنده قائم على المعرفة ، وليس للشر سوى خطأ يمكن إصلاحه بالتربية والتعليم ، ومن ثمّ فإن الفضيلة يمكن اكتسابها عن طريق التعليم .

الفضائل عند أفلاطون أربع : الحكمة والشجاعة والعفة والعدالة ، فوظيفة العدالة أن تحفظ النظام والتناسب بين الفضائل الثلاث الأخرى ، فالحكمة فضيلة العقل ، والعفة فضيلة النفس الشهوانية ، وأما الشجاعة فهي وسط بينهما وهي فضيلة النفس الغضبية ، فإذا ما تحقق التوازن بين قوى النفس وفضائلها حصلت النفس السعادة ، والمقصود من العدالة : هي حالة باطنية عقلية أخلاقية تتجاوب مع النظام في العالم المحسوس .

ومجتمع الخير هو الذي يتمكن من جمع ومقابلة الوظائف الثلاث وهي : الاقتصادية والحربية والتشريعية بالقوى الثلاث وهي : قوة العقل والغضب ، والشهوة ، فإذا تحقق ذلك يمكن أن يتحقق العدل بدرجة كبيرة تتناسب مع درجة الاقتراب من المثالية .

وترى الفلسفة المثالية : بأن لهذه القيم حق السيادة وهي هدف النظريات الأخلاقية لأنها ثابتة وأزلية وخالدة ، ولا يمكن الوصول إليها إلا عن طريق العقل المتسامي المجرد عن كل ما يتعلق بشهوة الإنسان.

كما يؤمن أهل هذا النوع من الفلسفة : بأن جوهر العالم هو العقل والأفكار والموجودات الكبيرة والصغيرة ، وأن للأشكال ظلالها ، والعقل المطلق أو العقل الإله الذي يخلق الحقيقة والأفكار هو أساس المعرفة والقيم التي تظهر في أشكال وأعمال إنسانية غير كاملة.

كما يعتقدون أصلاً : بوجود عالمين ، أحدهما مادي ، والآخر معنوي (سماوي) والإنسان الكامل يستمد قيمه من عالم السماء ، وهي قيم كاملة مطلقة ، تتمثل في الحق والخير والجمال. وأنها قيم ثابتة لا تتغير أزلية مطلقة معطاة ، فهي بهذا ليست من صنع الإنسان وإنما هي جزء من نسيج الكون ، ويتمثل دور الإنسان في حمل هذه القيم وتطبيقها فحسب. (مرجع سابق فلسفة القيم التربوية ١٣١ وما بعدها)

أما المثالية الذاتية : التي يمثلها (جورج باركلي) فتعتقد بأن العقل الإلهي هو الذي يعرض علينا المعاني ونظامها ، ودوام الله هو الذي يؤيد اعتقادنا بدوام الأشياء ، والإرادة الإلهية هي التي وضعت العلاقات بينها.

فكون الغذاء – مثلا- يغذي والنوم يريح ، ووجوب أن نزرع حتى نحصد ، وبالإجمال وجوب استعمال وسائل معينة للوصول إلى الغاية المعينة هذه أمور نعرفها لا باستكشاف ترابط ضروري بين معانيها ، بل – فقط- بملاحظة القوانين الموضوعة في الطبيعة " .

وعلى هذا فليست الطبيعة ما يعتقده الفلاسفة الوثنيون من أنها علة مغايرة لله تعالى ، وإنما هي : اللغة التي يخاطبنا الله بها.

أما موقف المثالي النقدي الآخر من القيم والذي يمثله (كانت) : فهو يقترح فلسفة أخلاقية أقل اجتماعية ، فهو يدعو البشر إلى التعامل مع الآخر غاية لا وسيلة ، وقانون الأخلاق عنده ضرورة أن يعمل باستمرار وكأن سلوكنا سيتحول قانون طبيعة شامل ، وسيكون ملزماً لجميع الناس .

والأخلاق عنده تقوم على العقل ؛ لأن العالم كلي ضروري أي صادر عن العقل لا عن التجربة والحس .

وإذا كانت الأخلاق تقوم على العقل أخذ ينادي بفصل الأخلاق عن الدين ، ويرى أن ميدان الأخلاق ميدان يختلف عن ميدان الحقائق العلمية ، وعليه فلا تعارض بينها إذن ولا اختلاف.

وهذه الأخلاق تخضع لقوانين ثابتة وضرورية ، مثل قانون الطبيعة ، ونظراً لكونها معنية بما وراء الواقع فإنها تقوم على أساس من الحرية في الإرادة ، لأن الواجب لا يؤدى أداء صحيحاً إلا ممن يمتلك إرادة قوية وحرية كاملة .

وإذا كان يقدس العقل فلأنه يعتقد أن أوامره المطلقة صحيحة ، وإذا كان يمجد الشخصية الإنسانية فهو راجع إلى أنه يرى أن لغة الواجب هي لغة الإنسانية جمعاء ، وأن أوامره تشريع عام يتساوى أمامه كل الأفراد ، فهو إذن يجمع في فكرة الواجب بين هذه النواحي ، ويقول بنظرية : هي في آن واحد أخلاق الواجب والحرية والعقل والإنسانية.

ولما كان العقل عنده يشتمل على قوانين تعتمد إحداها في تحصيل المعارف على الحس والتجربة ، ويسميها (العقل النظري) بينما تعتمد الأخرى على أفكار غير مكتسبة وقوانين فطرت عليها نفوسنا ، ويسميها (العقل العملي) أما العقل النظري فيعتمد في إدراكه على الحواس والتجربة ، وكلاهما معرض للخطأ والضلال ، فهو لا يصلح أن يتخذ أساساً تقام عليه الأخلاق ، بخلاف العقل

العملي الذي يعتمد في معرفة الحقائق على أساس فطري تجعل منه قوة باطنية للإنسان وجدت كاملة فيه منذ خلق وإلى الأبد وهي ما أطلق عليه اسم " الضمير " ومع فطرية هذه القوة فإن أوامرها يمكن تعليلها نظرياً .(المرجع السابق)

وهذا الضمير لا يقيس الأعمال الأخلاقية في ضوء ما يصدر عنه من لذة أو ألم وإنما يقيسها بمقدار ما فيها من المطابقة أو عدم المطابقة للواجب مهما جلبت لصاحبها من الآلام وخلقت من المتاعب وهذه هي الأوامر المطلقة التي يجب على الإنسان الإذعان لها والتقيد بها ، من هنا نستطيع أن نحدد الخير في هذه الحياة بأنه ليس شيئاً آخر سوى الإرادة الخيرة أو إرادة الخير.

والخلاصة : أن (كانت) يقترح فلسفة أخلاقية أقل اجتماعية ، فهو يدعو البشر إلى أن يعامل كل واحد منهم الآخر غاية لا وسيلة ، وأن القانون الأخلاقي عند كانت يقرر ضرورة أن تعمل باستمرار ، وكأن سلوكنا سيتحول ليصبح قانون الطبيعة الشامل وسيكون ملزماً لجميع الناس .

* أما موقف **المذهب المثالي (الموضوعي)** المطلق : والذي يمثله الفيلسوف هيجل ، والذي يرى أننا لا نعرف العقل إلا من خلال التاريخ ، حين تتحول الغرائز البهيمية والانفعالات العمياء إلى ما نسميه في منطق التاريخ بالإرادة الخيرة أو الفكر الراجح ، وهذا يعني أننا نستمد من التاريخ قيماً نضعها على سائر الأفكار والإرادات ، وقد ميز هيجل بين (الروح الذاتي) و(الروح الموضوعي) وذلك بالتمايز الحادث بين (ألانا) من جهة والمجتمع من جهة أخرى ، ولذلك حسم هيجل هذا التعارض بين الوعي الذاتي والموضوعي ، فأشار إلى ما يسميه : بالأخلاق الذاتية والأخلاق الموضوعية .

يلخص (هيجل) مراحل تطور الإرادة الحرة في ثلاث مراحل : الأولى : إرادة مباشرة ويكون مفهومها في هذه الحال مجرداً ، إذ الشخصية وتجسدها هو الشيء الخارجي المباشر وتلك هي دائرة الحق المجرد الصوري ، والمرحلة الثانية : إرادة منعكسة ترتد إلى ذاتها في تجسيدها الخارجي ، تتصف بالذاتية مقابل الكلي العام ، وتلك هي دائرة الأخلاق الذاتية ، ومرحلة ثالثة : تتكون من هاتين ، فكرة الخير : وهي لا تدرك في الفكر فقط لكنها تتحقق في الإرادة المنعكسة على ذاتها مع العالم الخارجي معاً ، وتلك الفكرة في وجودها المطلق هي دائرة الحياة الأخلاقية .

أ- الروح الطبيعية . (الأسرة). ب- روح منقسمة وظاهرية . (المجتمع المدني) . ج- الدولة بوصفها حرية كلية وموضوعية . ويميز هيجل هنا بين الأخلاق الذاتية والأخلاق الاجتماعية ، فالأولى هي الأخلاق الفردية ، أو أخلاق الضمير ، وهي ما يفهم عادة من كلمة الأخلاق ،

والأخلاق الاجتماعية تعني الحياة الاجتماعية وما فيها من مؤسسات ومنظمات كالأسرة وغيرها ، ويرى هيجل أن الأولى أخلاق مجردة ، أما الأخلاق الاجتماعية أو النظام الاجتماعي العقلي إذ تزودنا المؤسسات والمنظمات الاجتماعية وما فيها من قوانين بالمضمون الذي يفتقر إليه الضمير الحي .

وفي الأخلاق الذاتية تنتقل الإرادة من الخارج إلى الداخل ، فبعد أن كانت في (الحق المجرد) موجود في شيء خارجي تعود في الأخلاق الفردية إلى نفسها ، فإذا كان القسم الأول يمثل موضوعيتها فهذا القسم يمثل ذاتيتها (أن الحرية أو المبدأ الضمني للإرادة يمكن أن يصبح واقعياً بالفعل في الإرادة بوصفها ذاتية فحسب ... وعلى ذلك كما يقول هيجل " فإنه الدائرة الثانية وهي الأخلاق الذاتية تصور الجانب الواقعي للفكرة الشاملة للحرية) ثلاثة أقسام :

١- الفرص والمسؤولية .

٢- النية والرفاهية.

٣- الخير والضمير. (المرجع السابق ١٣٧ والفلسفة الأخلاقية ص ٢٠)

* هناك انتقادات وجهت لفلسفة التربية المثالية ومن ذلك :

أ- في المثالية نجد الفكر متميزاً عن الموضوعات والمثالية لا تقبل أن يكون للأشياء وجود في ذاتها مستقل عن الفكر ؛ لأن ما هو خارج الفكر لا يمكن أن يكون متعقلاً ، وبالتالي لا يكون شيئاً والذات العارفة إنما تفكر أي تعقل الأشياء بالفكر ، و أدارة الفكر في التعقل هي الأفكار ، إذن فلا شيء هناك سوى الأفكار ، فالفكر هو الواقعة الأولى ، وهو أول المعطيات وبالتالي فإن كل تفسير وكل قضية إنما يفترض الفكر أو الذاتية فالمثالية تشير إلى الرأي القائل " أن تكون موجوداً وأن تكون معروفاً يعد نفس الشيء .

والمثالية تهتم بالعقل وتهمل الأنشطة الأخرى الجسمية .

ب- أن المثالية قد أعلت شأن وأهملت تربية الجسم ، وتنطلق أساساً من الصدارة المطلقة للروح على المادة .

ج- تقر الفلسفة المثالية بخلود القيم الروحية وتؤكد عموميتها واشتراك الأفراد فيها ز

د- غرض التربية المثالية هو الارتفاع المتدرج نحو الوصول إلى إثبات المطلق ن ومحاولة الوصول بالإنسان إلى أقصى درجات الكمال الروحي ليكون أهلاً للوصول الكمال المطلق والهدف الأعلى وهو السعادة للفرد والخير للدولة .

كما أن الغرض الاجتماعي : هام بالنسبة للمثالية ؛ إذ تعمل على أن يصل الفرد إلى إكمال ذاته ، وذلك بأن تشتمل على قيم ومثل يشترك فيها الناس كلهم ؛ ولهذا تحاول أن تُخضع الأفراد وتحد من حريتهم ، وأن الحرية لا تكون إلا عن طريق الخضوع للدولة ، وتعتبر الأفراد وسائل لتحقيق المثل العليا التي تهدف الدولة لتحقيقها .

ولا يعتبر المرء فرداً وعضواً بالمعنى المراد إلا إذا دخل تحت لواء الدولة ، ومن أشهر دعاة هذا المبدأ : أفلاطون وهيجل ، فهم يؤمنون بالمذهب الدكتاتوري في السياسة .

هـ - أن منهاج التربية عندهم يسير على مبدأ القديم على قدمه وعدم قابليته المنهاج المثالي للتطور ، أي ما توصل إليه الأجداد من التراث ثابت ومطلق لهذا هدفت لحشو أذهان الطلاب بالمعلومات. (فلسفة القيم التربوية ١٣٩)

وهناك فلسفات أخرى لها نظرها الخاص تجاه القيم أذكرها على سبيل المثال مع الاختصار :

- **الفلسفة الواقعية :** وهي تميل إلى التقليل من قيمة الدور الذي تلعبه الغاية وإلى الاعتقاد ؛ مع بيان أن مهمة التفكير هي دراسة التتابع للأحداث التي لا يمكن لعجزه أن يؤثر فيها أو يغيرها .

كما أنها تسير على أن الحكمة الكبرى تكمن في قبول تلك القوة والاتجاهات ، وفي التكيف على ما ينسجم معها.

ويطلق هذا المذهب على : مجموعة من المذاهب التي تشترك إلى جانب عدائها للمثالية في خصائص أظهرها : القول بأن للأشياء الخارجية وجوداً عينياً مستقلاً عن العقل الذي يقوم بإدراكها وعن جميع أفكار ذلك العقل وأحواله . (انظر فلسفة القيم التربوية ص١٣٩)

وقد انتقدت الفلسفة التربوية من جهات :

- أهل هذه الفلسفة يؤمنون بأن العقل يستطيع أن يصل إلى معرفة العالم وحقائق الكون بفكره ، وهذا فيه خطورة من جهة : أن هناك حقائق لا يمكن إدراكها عن طريق العقل لكونها أكبر من عقل الآدمي .
- ويرون : أن الإنسان بطبيعته ميال للشر أكثر منه للخير، وتكون وظيفة التربية كبح جماح الشر عن طريق الثواب والعقاب .

ويرى آخرون أن الكون محايد فلا هو خير بطبيعته ، ولا شرير بطبيعته ، فالخير والشر والجمال والقبح أمور اجتماعية تختلف باختلاف المجتمعات والأفراد. (المرجع السابق ص١٤٩)

- **الفلسفة الماركسية :** وهي أكمل تعبير عن الاشتراكية ، وهي تقوم على الدعوة إلى محاربة الرأسمالية ، حتى إذا قضت عليها تيسر تحقيق الشيوعية بعد ذلك .

مبادئها :

١- تكوين الشيوعية لدى أبناء المجتمع المعادية للرأسمالية والملكية الفردية .

٢- إنكار الطبقات وإزالة الفوارق بين الطبقات والمساواة بين الأجناس والقوميات ودفن النزاعات العرقية ، ومكافحة العقائد الدينية ومساواة المرأة للرجل .

٣- الاحترام الكامل للشخص الذي يدفع بالعمل نحو تطوير الشخصية ، والربط بين التعليم والعمل المنتج لإيجاد الوحدة بين النظرية والتطبيق .

نظرة الماركسية للقيم : إنها ترد القيم إلى الأساس الاقتصادي ، وترى بأن القيم لا سيما الخلقية منها تنشأ بمولد المجتمع الإنساني ، وعندئذ يفرض المجتمع على أفراده مطالب محدودة ، غير ثابتة ، متغيرة تتحول بتطور المجتمع بسبب تغير الإنتاج .

وكذلك الماركسية : لا تؤمن بوجود أخلاق أبدية مطلقة ، وإنما تؤمن بوجود أخلاق نسبية واقعية هي أخلاق : البلورلتاريا . وترفض أي تعاليم أخلاقية مقررة من قبل ، حتى ولو كانت باسم الدين ، وتسعى الماركسية : إلى تأييد قيمة الوطنية واحترام الكبار وتقدير العاملين للصالح العام والنظام واحترام العمل ، وهي لا تختلف كثيراً عن القيم الأخلاقية للمجتمع القديم.

* وقد انتقدت الفلسفة الماركسية من عدة جهات :

١- موقفها من التراث الأوربي وأفكار الدين ، وموقفها السلبي هذا يعني : تجريد الإنسان والأمة من العوامل الروحية التي تشكل مكوناً أساسياً في الحياة .

٢- التفسير الطبقي لحركة التطور التأريخي والذي انطلق من أن تاريخ كل مجتمع لم يكن سوى تاريخ طبقات ، أمراء ورقيق وأشراف وعامة .

٣- استلاب حرية الفرد وغياب التوازن بين مصلحته ومصلحة المجتمع من خلال ذوبان مصلحته في مصلحة المجتمع ، وغياب هذه الحرية يؤدي إلى غياب المبادرة الفردية ، وهذا يؤثر سلباً في مصلحة المجتمع .

٤- عدم الاعتراف بالملكية الخاصة والنشاط الخاص ، فالأرض كلها ملك للدولة ، وهذا بدوره يضعف إنتاج الفرد ، ويفقده أمراً فطرياً جبل عليه وهو حب التملك.

٥- اعتقاده إمكان الجمع بين المادية من جهة وبين الاعتقاد بتحقيق العدالة من جهة أخرى .

* هذه بعض النماذج لمفهوم القيم في الفكر الفلسفي ، وقد تبين من خلال عرضها أنها تتباين بحسب الاعتقادات والأفكار التي يحملها أصحابها ، وعرفنا أيضاً – بأن غالبها يحمل لوثات فكرية مناهضة للمنهج السليم والدين القوم المبني على الكتاب والسنة ؛ ولهذا تعرضنا لأكثرها بالنقض والإبطال ؛ لفساد ما تحمله من مقومات لبناء القيم والأخلاق.

الفصل الثاني :

أسس القيم وخصائصها في الإسلام والفكر الغربي

وفيه مباحث :

المبحث الأول : أسس القيم في الإسلام : وفيه مطالب :

المطلب الأول : الأساس الاعتقادي.

المطلب الثاني : الأساس الواقعي والعلمي.

المطلب الثالث : الأساس الإنساني.

المطلب الرابع : أساس الحرية.

المطلب الخامس : أساس المسؤولية.

المطلب السادس : الأساس الجزائي.

المبحث الثاني : أسس القيم في الفكر الغربي المعاصر ، وفيه مطالب :

المطلب الأول : المنفعة.

المطلب الثاني : المادة.

المطلب الثالث : منهج التفكير المادي.

المبحث الأول

أســس القيـــم في الإســـــلام

المطلب الأول :

* الأســـاس الاعتــــقادي.

من أهم المهمات في بناء القيم لدى الأمم على وجه العموم هو الأساس الاعتقادي الذي يتمثله صاحب تلك القيم ، ويدين به ، فمنه تتكون تلك القيم وتوجد وبه وعلى أساسه تبنى القيم وتحسب .

وهكذا وجد القيم في الإسلام ، وما ذاك إلا لأن العقيدة الصحيحة هي أهم ما يطلب من الإنسان ؛ لأن العمل إنما يتبع الاعتقاد ، وعلى قدر ما تصح عقيدة المسلم وتقوى وتستقيم له أعماله وتزكو أخلاقه وتسمو همته . (انظر المدخل إلى الثقافة ص١٨٤ بواسطة القيم بين الإسلام والغرب ص٧٤)

ورأس الأمر وأساسه توحيد الله عز وجل ، فلا ينفع الإنسان عمله ظاهراً ولا باطناً إلا مع صحة العقيدة واستقامتها ، ولهذا لما فسدت عقائد بعض والكفار أبطل الله عملهم وجعله هباء منثوراً ، كما قال سبحانه : " وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً " (سورة الفرقان ...) قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه : " ... فإذا عرفت أن الله خلقك لعبادته فاعلم أن العبادة لا تسمى عبادة إلا مع التوحيد ، كما أن الصلاة لا تسمى صلاة إلا مع الطهارة ، فإذا دخل الشرك في العبادة فسدت كالحدث إذا دخل في الطهارة ..." (انظر القواعد الأربع بشرح سماحة الشيخ ابن باز رحمه الله ص ١٠ ، وشرح الشيخ صالح الفوزان حفظه الله ص١٧) ؛ ولهذا فإن هذا الأساس في غاية الأهمية في الاتجاه القيمي في الإسلام ؛ لأنه يعتبر الدعامة الأساس التي يعتمد عليها في إقامة النظام الأخلاقي والالتزام به ، وبدون هذا الأساس تفقد الأخلاق مكانتها وعظم تأثيرها في الإنسان ، ولا يمكن تطبيقها تطبيقاً عملياً دقيقاً في السر والعلن إلا إذا اتخذت هذا الأساس في قلوب البشر مكاناً وآمنوا به إيماناً صادقاً ، فهو يلعب أكبر دور في الحياة الإنسانية من حيث إنه أكبر دافع يدفع الإنسان إلى الأعمال الخيّرة الإيجابية ، ويردع عن اتباع الهوى والشهوات ، ويقوم هذا الأساس على ثلاثة أركان :

١- الإيمان بوجود الله الذي خلق كل ما في الكون ، وهو بكل شيء عليم ، قال تعالى : " الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل " (سورة الزمر ٦٢)

٢- أنه الله تعالى لما خلق الإنسان عرّفه نفسه ، وماذا يجب عليه من حقه سبحانه ، وبين له كذلك طريق الخير والشر والحق والباطل ، وذلك بإرسال الرسل وإنزال الكتب على قلوب من اصطفاهم لتبليغ رسالاته للناس ، قال تعالى : " إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً " (سورة الإنسان ...)

ولهذا فمن أصلح نفسه واتبع الهدى فقد فاز ونجا ، ومن ضيعها وأطلق لنفسه العنان لترتع في الشهوات والملذات خاب وخسر خسراناً مبيناً ، وسيندم حين لا ينفعه الندم ، قال تعالى : " ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها " (سورة الشمس ٧-١٠) وقد خلق الله تعالى للخلق قدرة على إدراك ذلك وإدراك الحقائق ونصب دلائل واضحة بينة في الطبيعة حتى تدركها العقول المتأملة فيها ، قال تعالى : " سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبن لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد " (سورة فصلت ٥٣)

ولهذا فقد كلف الله تعالى الإنسان باتباع الحق والخير واجتناب الباطل والشر ، كما بين ما يجب على الإنسان نحو خالقه ونحو المخلوقات الأخرى .

٣- اعتقاد ثبوت البعث بعد الموت ، وأنه لا بد من الرجوع إلى الله ليقضي بالعدل بين العباد ، وتلك الحياة مترتبة على ما يعمله الإنسان في دنياه إن خيراً وإن شراً فشرّ ، قال تعالى : " وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون " (سورة التوبة ...)

ومن أبرز ما يميز هذا الأساس عدة أمور :

أ٠ القيم المبنية على اعتقاد صحيح ذات قدسية ، وهذا يؤدي بدوره إلى أمرين :

الأول : تعظيم هذه القيم وإجلالها ، ومن ثم تكون لها سلطة تتحكم في حياة الإنسان وتصرفاته في السر والعلن .

الثاني : تأثير هذه القيم في الإنسان عملياً من الناحية الإيجابية أو السلبية نتيجة تطبيقها أو عدم تطبيقها ؛ لأن الإحساس بقدسية تلك القيم يجعل الإنسان من نفسه رقيباً على تصرفاته ؛ فيشعر بالسرور وانشراح الصدر ، ويكون أثر عدم تطبيقها الإحساس بالتضايق من ذلك.

ب٠ قيم الإسلام من حيث الأصول هي عامة وثابتة ، وتتجاوز القوانين الوضعية من ناحية التأثير والتطبيق .

ج ٠ امتثال هذه القيم والأخذ بها يحقق للإنسان السعادة التي يسعى لها كل البشر ، فيسعد حياته إضافة إلى السعادة بعد الموت ؛ لأن هذه القيم والمثل تجمع له بين خيري الدنيا والآخرة .

د٠ أن حياة الإنسان مبنية على عقيدته وهي التي تصنع حياته وتقوم عليها ، وهي القادر على حسم الأدواء وحل المشكلات ، فهي تشيع روح الخير والطمأنينة والسلام بين أفراد المجتمع .

وما لم تبن هذه الحياة على هذه الأساس الذي يوازن بين الحق والباطل والفضائل والرذائل ، فلن ينحسم الصراع بين الحق والباطل والخير والشر . (انظر القيم بين الإسلام والغرب ص٧٧)

المطلب الثاني :

الأساس الواقعي والعلمي :

للحياة الواقعية التي يعيشها الإنسان علاقة قوية وحميمة مع القيم التي يدين بها ويعتقدها ، فلا تعارض – حينئذ- بينها وبين السنن الكونية الطبيعية ، فالإسلام قد حدد للإنسان الأطر القيمية المبنية على تصوره للكون والحقائق الموجودة فيه ، وكذلك على أساس حقيقة تكوين وصلة الحقائق الداخلة في طبيعة الإنسان بالحقائق الكونية ، فالإسلام يتجه نحو الطبيعة في إقامة نظامه القيمي اتجاهاً معتدلاً ، ويتجلى هذا الاعتدال في موقفين اثنين هما :

الأول : أن الاعتدال في الاتجاه القيمي عند الإنسان يكون عوناً له على أن يحقق الغاية التي خلق من أجلها ، وهي عمارة الكون والاستخلاف فيه ، قال تعالى : " وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون " (سورة البقرة ...) قال الحافظ ابن كثير في تفسير هذه الآية : (تفسير ابن كثير [١ / ١٠٤]) :

وعن ناس من الصحابة أن الله تعالى قال للملائكة : " إني جاعل في الأرض خليفة قالوا : ربنا وما يكون ذاك الخليفة ؟ قال : يكون له ذرية يفسدون في الأرض ويتحاسدون ويقتل بعضهم بعضا ، قال ابن جرير : فكان تأويل الآية على هذا : إني جاعل في الأرض خليفة مني يخلفني في الحكم بالعدل بين خلقي وإن ذلك الخليفة هو آدم ومن قام مقامه في طاعة الله والحكم بالعدل بين خلقه وأما الإفساد وسفك الدماء بغير حقها فمن غير خلفائه : قال ابن جرير وإنما معنى الخلافة التي ذكرها الله إنما هي خلافة قرن منهم قرنا قال : والخليفة الفعيلة من قولك خلف فلان فلانا في هذا الأمر إذا قام مقامه فيه بعده كما قال تعالى : { ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون } ومن ذلك قيل للسلطان الأعظم خليفة لأنه خلف الذي كان قبله فقام بالأمر فكان منه خلفا " أ. هـ.

وهذا الاستخلاف في الأرض يكون سبباً في – بإذن الله – في عمارة الأرض بل والكون بالصورة التي أراد الله تعالى أن تكون عليها على قد الاستطاعة .

الثاني : لا بد - عند إرادة العيش حياة سوية مع طاعة الله تعالى – من مراعاة القوانين الكونية للحياة ، وتكون هذه المراعاة عن طريق اتخاذ القواعد والمبادئ السلوكية ومراعاتها وفقاً للقوانين الأساسية للحياة البشرية .

فالله تعالى خلق هذا العالم على نظام وتقدير وترتيب ، وهو يحتاج إلى أن يعمل الإنسان عقله للوقوف على النواميس الكونية ؛ لأنها تفتح مغاليقه وتمكن من الاستفادة منه .

فالعقل هو أداة المعرفة العلمية التي ينبغي أن تؤدي إلى الاختيار السليم ، كما أنها تمكن الإنسان – بتوفيق الله تعالى – من معرفة الخير والشر ، وفي ظل هذا يتبين الارتباط الوثيق بين القيم والعلوم المختلفة ، مما يجعلها أساساً صالحاً للبناء الإنساني ومن ذلك :

أولاً : ارتباط القيم بالحياة الكريمة : ويتجلى ذلك في قانون المحافظة على الحياة حيث يعد الإسلام كل سلوك من شأنه أن يحافظ على الحياة وينميها – حياة المرء لنفسه أو لغيره – سلوكاً أخلاقياً .

ومن هنا حرم الإسلام القتل والانتحار والتهديد وإخافة الناس واستغلالهم في مصالح شخصية ، كما قد حرم التحاسد والتباغض والتدابر ؛ لأنها أمور لا أخلاقية ، بل هي تفسد الحياة وتعيقها عن مسار الحسن وتهدمها ، ولهذا فقد أوجب الإسلام احترام حقوق الناس في دمائهم وأموالهم وأعراضهم ، كما حث على الأعمال الخيرة والنافعة التي تبعث الخير في الناس وتيسر سبل لهم معيشتهم ، وتنشر المحبة والود والسرور في نفوسهم ، وعلى سبيل العموم فإن كل سلوك مأذون به شرعاً يبقي على الإنسان وينفعه ويحافظ على حقوقه فهو سلوك مطلوب وأخلاقي وواقعي ، ومن هنا شرع الإسلام الزواج وكره الرهبنة ، قال تعالى : " ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم " (سورة ٢٧) ، وقد نهى النبي **r** عن التبتل ، وهو ترك النكاح تديناً ؛ (كما جاء ذلك في حديث عند البخاري ، في كتاب النكاح ، باب ما يكره من التبتل والخصاء ، برقم (٥٠٧٣)) وجاء الأمر بالتحري في اختيار الزوجة ، كما **r** " تنكح المرأة لأربع ؛ لمالها ولجمالها ولدينها ولحسبها فاظفر بذات الدين تربت يداك " (رواه ...) فلما ذكر مقاصد الناس في النكاح أشاد بأهمها وأعظمها قدراً عند الله تعالى وهو الدين ، فعبر عنه بالظفر ، لأنه بمنزلة الغنيمة التي يظفر بها . وما ذاك إلا لأهمية الزواج وما يترتب عليه من المصالح العظيمة من النسل والتربية والأسرة ونحو ذلك.

كما قد حرم الإجهاض وقتل الأجنة بغير مسوغ شرعي ، ونهى عن تحديد النسل لأنه يمنع من أعظم مقاصد النكاح وهو الذرية .

كما أن الترابط بين القيم والحياة الكريمة يظهر من خلال : قانون الارتقاء العقلي الروحي ، ويعد هذا القانون من القوانين المهمة في حياة الإنسان الواقعية ، وبه تتميز حياته عن حياة الحيوان ، ويدخل في هذا القانون جميع الحواس المعنوية في الإنسان ، مثل : الحاسة العقلية والأدبية والجمالية ، ويمكن تقسيم هذه الحواس بحسب النوع الإدراكي إلى قسمين :

الأول : حاسة تعتمد على الذكاء .

الثاني : حاسة تعتمد على الشعور والإحساس العاطفي ، والتي تدفع الإنسان إلى السلوك وفقاً لإدراكاتها ، كما تضفي على حياة الإنسان شيئاً من البهجة والحسن ؛ لأن حاجة الروح مستمدة وليست محدودة ، فهي تجعل الإنسان يعيش في عالم أوسع من عالم المحسوس .

وعليه فلا تكون حياة الإنسان واقعية حتى تبنى على القوانين المذكورة سابقاً .

ولذا فإن الإسلام لا يكلّف الإنسان فوق ما تطيقه نفسه وطبيعته ، ولم يدفعه للتصادم مع قوانين الحياة حتى لا يؤدي به ذلك إلى الهلاك .

ثانياً : ارتباط القيم بطبيعة النفس الإنسانية : وهذا فيه دعوة إلى مراعاة الفروق الفردية لدى أفراد المجتمع من الناحية النفسية والعقلية ، كما دعا إلى مخاطبة الناس على قدر عقولهم .

ولهذا جاء في كتاب فتح المجيد شرح كتاب التوحيد : للشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ (١ / ٣٨٩) قال عن قول صاحب كتاب التوحيد :

(وفي صحيح البخاري عن علي رضي الله عنه : حدّثوا الناس بما يعرفون ، أتريدون أن يكذب الله ورسوله)

على هو أمير المؤمنين أبو الحسن علي بن أبي طالب ، وأحد الخلفاء الراشدين ، وسبب هذا القول ـ والله أعلم ـ ما حدث في خلافته من كثرة إقبال الناس على الحديث وكثرة القصاص وأهل الوعظ ، فيأتون في قصصهم بأحاديث لا تعرف من هذا القبيل فربما استنكرها بعض الناس وردها ، وقد يكون لبعضها أصل أو معنى صحيح ؛ فيقع بعض المفاسد لذلك ؛ فأرشدهم أمير المؤمنين رضي الله عنه إلى أنهم لا يحدّثون عامة الناس إلا بما هو معروف ينفع الناس في أصل دينهم وأحكامه ، من بيان الحلال من الحرام الذي كلفوا به علما وعملا ، دون ما يشغل عن ذلك مما قد يؤدي إلى ردّ الحق وعدم قبوله ، فيفضي بهم إلى التكذيب ، ولا سيّما مع اختلاف الناس في وقته وكثرة خوضهم وجدلهم. أ.هـ.

كما دعا إلى الرحمة وعدم القسوة والشدة المفرطة ، ودعوته كذلك إلى الرحمة في الحالات التي تستدعيها ، كالطفولة والشيخوخة والنساء والمرض واليتم ، قال r : " من لا يرحم لا يرحم) (رواه البخاري في كتاب : باب : برقم (٦٠١٣)

كما دعا عليه الصلاة والسلام بالرفق في الأمور كلها ، ولذلك كان مربياً رفيقاً رحيماً بأمته ، قال تعالى : " لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم "

ويقول عليه الصلاة والسلام : " إن الله يحب الرفق في الأمر كله ، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف وما لا يعطي على غيره " (رواه البخاري ، كتاب : باب : برقم (٦٠٢٤)

ثالثاً : ارتباط القيم بالطب : ولهذا انتشرت مقولة : الوقاية خير من العلاج ، وعبارة : درهم وقاية خير من قنطار علاج.

ونلحظ أن الإسلام قد ركز على العناية بالصحة النفسية والوقاية من الأمراض النفسية والروحية مثل أو أشد من العناية بالأمراض العضوية ؛ لأن ضررها أشد من ضرر المرض العضوي ، فهي تعطل حركة الإنسان وتشلّ نشاطه ، وتجعله يعيش حياة مظلمة قاتمة لا يشعر بشيء من البهجة والسرور ، بل ولا يشعر حتى بلذة الطعام والشراب - والعياذ بالله نسأل الله السلامة والعافية - .

ولما كان الأمر كذلك فقد جاء الإسلام بأسباب لدفع البلاء قبل وقوعه كما جاء بأسباب لرفع البلاء بعد وقوعه ، مع التوكل على الله تعالى في الانتفاع بالأسباب ، والرضا بقضاء الله وقدره – سبحانه- إن لم يتم المراد ؛ لأنه لا يقع للعبد من البلاء إلا بقضاء الله وقدره وعلى العبد دفعه ، وإن وقع فعليه بالصبر ومحاولة رفعه ، ويكون منعه بأمور كالدعاء ، كما قال النبي r : " لا يرد القدر إلا الدعاء " (رواه ابن ماجه ١٣٣٤/٢، والحاكم بلفظه ٦٧٠/١، وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه وتابعه الذهبي) ومن تلك الأسباب التي يستدفع بها البلاء : (انظر بحثاً في هذا الموضوع بعنوان : أسباب لدفع البلاء بعد وقوعه وأسباب لرفع البلاء بعد وقوعه ،د. منيرة المطلق ص١٦٣، من مجلة البحوث الإسلامية العدد: ٨٧)

١- عبادة الشكر : فهي سبب لزيادة النعم ودفع البلاء والنقم ، قال تعالى : " وإذ تأذّن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد " (سورة إبراهيم ٧) .

٢- التقوى : وهي من أعظم الأسباب الجالبة للسعادة والدافعة للبلاء ، كما أن ترك التقوى سبب لتعسر الأمور ، كما قال تعالى : " ومن يتقي الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب " (سورة الطلاق ...) والتقوى معناها : فعل ما أمر الله به وترك ما نهى الله عنه .

٣- التزود من الطاعات وترك المعاصي والمنكرات : كما في وصية النبي r لبن عمه ابن عباس : " يا غلام احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك ... " (رواه الإمام أحمد ١/ ٢٩٣ ، والترمذي ٦٦٧/٤، وقال : حديث حسن صحيح ، والحاكم ٥٤١/٣)

هذه بعض الأسباب الشرعية للوقاية من الابتلاءات النفسية ، وهناك أنواع أخرى من أسباب دفع البلاء وهي أسباب شرعية – أيضاً – لكنها من نوع آخر يتعلق بالقيم والمبادئ ، منها :

أ- أسباب خاصة بالنظافة : فديننا مبني على مراعاة الجمال الظاهر كما قد راعى الجمال الباطني ، فقال النبي r : " إن الله جميل يحب الجمال " (رواه ...) فالنظافة سبب من أسباب الوقاية والحماية – بإذن الله – من كثير من الأمراض التي تنشأ من القاذورات والأوساخ ، كالميكروبات والفطريات ونحوها ، ولهذا راعى الإسلام جانب النظافة وحث عليه ، كما في قوله تعالى : " يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ... " (سورة الأعراف ...)

ب- الأسباب الواقية من العدوى : والعدوى ثابتة في الشريعة كما قال النبي r : " فرّ من المجذوم فرارك من الأسد " (رواه ...) قال في فتح المجيد [١ / ٢٩٤] عن هذا الحديث ونحوه :

وقد اختلف العلماء في ذلك : وأحسن ما قيل فيه : قول البيهقي وتبعه ابن الصلاح وابن القيم وابن رجب وابن مفلح وغيرهم : أن قوله : لا عدوى على الوجه الذي يعتقده أهل الجاهلية من إضافة الفعل إلى غير الله تعالى وإن هذه الأمور تعدى بطبعها ، وإلا فقد يجعل الله بمشيئته مخالطة الصحيح من به شئ من الأمراض سببا لحدوث ذلك.

ولما سئل شيخ الإسلام ابن تيمية : عن رجل مبتلى سكن فى دار بين قوم أصحاء فقال بعضهم لا يمكننا مجاورتك ، ولا ينبغي أن تجاور الأصحاء ، فهل يجوز إخراجه ؟

أجاب نعم لهم أن يمنعوه من السكن بين الأصحاء ؛ فإن النبى r قال : " لا يورد ممرض على مصح " ؛ فنهى صاحب الإبل المراض أن يوردها على صاحب الإبل الصحاح ، مع قوله : " لا عدوى ولا طيرة " وكذلك روى : أنه لما قدم مجذوم ليبايعه أرسل إليه بالبيعة ولم يأذن له فى دخول المدينة. (مجموع الفتاوى ٢٤ / ٢٨٤)

فدلّ ما سبق على التوقي من الأمراض المعدية حتى لا تنتقل العدوى من المريض إلى الصحيح – بإذن الله تعالى – وهذا من بذل السبب المطلوب شرعاً.

ج- الأمر بالاعتدال في الأمور كلها : حيث أمر الإسلام بالتوسط في الطعام والشراب ونهى عن السرف فيه ، فقال سبحانه : " ... وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين " (سورة الأعراف ٣١) وجعل قانونا لذلك تحفظ به الصحة وتسلم به النفس من الآفات ، ومن ذلك قوله r : " بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه فإن كان لا بد فاعلاً فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه " (رواه ...) وأمر النبي r التي رآها قد

ربطة حبلاً بين ساريتين تمسك به إذا فترت من قيام الليل أن يحل ذلك الحبل ، وقال : " ليصل أحدكم نشاطه فإذا فتر فلينم ، فإن أحدكم يريد أن يستغفر فيسب نفسه " (رواه ..) (انظر في هذا المطلب : القيم بين الإسلام والغرب ص٧٧)

المطلب الثالث :

الأساس الإنساني .

يمكن تقسيم هذا الأساس إلى ثلاثة فروع أساسية ، وهي كما يلي :

الفرع الأول : الطبيعة الإنسانية : فدراسة طبيعة الإنسان تمكنه من تكوين صورة واضحة لحقائق هذه الطبيعة ، ومن الأهمية بمكان معرفة ما في داخل الإنسان من ميول ورغبات وغرائز متنوعة ، وذلك ؛ لأنه لا يمكن التحكم في الشيء وتسخيره إلا بعد العلم بما فيه من الحقائق والقوانين التي تخضع لها ، ومدى تأثير القيم فيها ، والقدرة على توجيهها ، فعندما يكون التوجيه من داخل الإنسان يكون أكثر تأثيراً وأجدى نفعاً ؛ ولهذا نجد الإسلام يعطي صوراً واضحة لحقيقة طبيعة تكوين الإنسان ، كما يلقي الضوء على أغوار هذه الطبيعة وأسرارها . ثم كان توجيهه وفقاً لذلك التصور الكامل وتلك المعرفة الكاملة في جوانب هذه الطبيعة الداخلية.

فالإنسان مخلوق متميز على سائر المخلوقات الحية ؛ فهو مكون من حقيقتين : سماوية ، والأخرى : مادية أرضية ، قال تعالى : " وبدأ خلق الإنسان من طين " (سورة السجدة ٧) وقال تعالى : " ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون " (سورة السجدة ٩) فبين الله تعالى بهاتين الآيتين كلا الحقيقتين اللتين خلق منهما الآدمي . سماوية كانت أم مادية .

وبالتركيب الجامع بين الروح والجسد للإنسان يتحقق التنسيق بين قوى الروح والجسد ، ومما يمتاز به النظام الإسلامي في تحليل الطبيعة الإنسانية أنه ينظر إليها نظرة شاملة وكلية بحيث لا يقتصر نظره وتحليله ودراسته على جانب واحد دون الآخر .

أما الصفات التي ترجع إلى الطبيعة المادية فمنها على سبيل المثال الإخلاد إلى الأرض والالتصاق بالأمور المادية الحسية ، قال تعالى : " ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه " (سورة الأعراف ١٧٦) والاشتغال بالدنيا وحطامها الزائل ، الذي أنساهم الآخرة والعمل لها .

ومنها : الشره والتعجل : وهي من الصفات المذمومة التي جاءت الشريعة بذمها والتحذير منها في إشباع الغرائز ، ومن تلك النصوص الدالة على الذم قوله تعالى : " خلق الإنسان من عجل " (سورة الأنبياء ٣٧) ويدخل في هذا القسم كل الصفات الحيوانية والدوافع المادية مثل : التناكح ، والتناسل ، والغذاء ، وحماية النفس ونحو ذلك من الصفات .

وهناك صفات أخرى ناتجة عن التكوين الروحي ، منها على سبيل المثال : النظر والتأمل والبحث عن المعرفة والاستعلاء على الطبيعة الحيوانية والعبودية لله تعالى وحده ، والحكمة والتعامل بالإحسان وغير ذلك ، ولما كان ذلك الاستعلاء على الطبيعة الحيوانية والرقي بالنفس إلى مصاف أهل العبودية الحقة ، الذين قدموا محاب الله تعالى ومراضيه على محاب النفس ومشتهياتها ذا مزية ومكانة عظيمة عند الله تعالى يستحق صاحبها أن يشاد به ويثنى عليه حتى يكون محلاً للقدوة أنزل الله تعالى سورة كاملة في الكتاب العزيز تتلى إلى يوم القيامة وهي : سورة يوسف عليه السلام ، ذلك النبي الكريم الذي سما بروحه فوق كل الدوافع الغريزية التي دعت لها امرأة العزيز ، قال تعالى : " كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه كان من عبادنا المخلصين " (سورة يوسف ...)

والصفات الناتجة عن امتزاج العنصرين المادي والروحي معاً ، فيمكن تقسيمها إلى ثلاثة أقسام :

أ- صفات شيطانية : وتنشأ هذه الصفات عن الإيحاءات الشيطانية إلى الإنسان ، وتسلط الدوافع الغريزية البهيمية على قواه ، مثل القوى العقلية واتخاذها وسيلة لتحقيق أغراضها الذاتية الخاصة ، وذلك بأساليب خبيثة ماكرة ومخادعة وبأنواع الحيل الشيطانية المختلفة ، فهو يسعى إلى الإضرار بغيره ويسلك لتحقيق ذلك الأساليب الشيطانية ، ولو كان ذلك على حساب الدين والعلاقة مع الله تعالى ، ولقبح صنيع أولئك سماهم الله شياطين : " وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً " (سورة الأنعام ...)

ولما كان أولئك ينشأ شرهم من اتباعهم لخطوات الشيطان ، واستجابتهم لوساوسه نهى تعالى عن امتثال أوامره فقال سبحانه : " يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد ولكن الله يزكي من يشاء والله سميع عليم " (سورة النور...)

ت-صفات ملائكية : عندما يسمو الإنسان بهمته فيصل إلى الملائكة لكن لا بجسده ولكن بروحه وأخلاقه الملائكية – حينئذ- تتصاغر أمامه الدنيا ويحتقرها وتهون لديه ، فلا

يحسب للمال ولا للجاه ولا المنصب حساباً ، وإنما يعظم في قلبه حب الله تعالى والعمل بطاعته وإسداء النصح للآخرين ونفع عباد الله ، وقد وصفهم الله تعالى بأفضل الصفات وأنبلها فقال عز قائلاً عليماً : " وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ، والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً " (سورة الفرقان ٦٣-٦٤)

ث-الصفات الإنسانية التي تميز الإنسان عن غيره : والمقصود بها الصفات الجبلية التي تكون طبيعته ، وتحكي واقعه الإنساني ، ومنها :

- البطر عند النعمة ، والجزع عند الشدة ، قال تعالى : " إن الإنسان خلق هلوعاً إذا مسه الشر جزوعاً وإذا مسه الخير منوعاً إلا المصلين " (سورة المعارج ...)
- ومنها الطمع والشح : كما قال تعالى : " لا يسأم الإنسان من دعاء الخير وإن مسه الشر فيؤس قنوط " (سورة فصلت ٤٩)
- وكثرة الجدل والخصومة : قال تعالى : " وكان الإنسان أكثر جدلاً " (سورة الكهف ٥٤)
- والعجلة في اتخاذ القرارات وتدبير الأمور ونحو ذلك ، قال تعالى : " خلق الإنسان من عجل " (سورة الأنبياء ...)
- ومنها : كثرة النكران للنعمة والإحسان ، قال تعالى : " إن الإنسان لربه لكنود " (سورة العاديات ٦)

ومنها : الفكرة والعلوم ، والصنائع والحاجة إلى الوازع ، والسعي في المعاش والاعتمال في تحصيله من وجوهه ، والعمران .

فطبيعة الإنسان متعددة الاتجاهات متعددة الدوافع والميول والغرائز ، وهناك ائتلاف ما بين الطبيعة المادية لدى الإنسان وما بين الطبيعة الروحية للإنسان ؛ ولهذا الخليط الفريد في طبيعة الإنسان صار يتميز عن سائر المخلوقات ، ويرجع سبب هذه الطبيعة لدى الإنسان إلى الحكمة الإلهية وهي : الابتلاء ، قال تعالى : " إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً ، إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً " (سورة الإنسان ٢-٣)

فقد خلق الله تعالى الإنسان وبين له طريق الخير والشر ، ويسر له سبل الهداية والصلاح ، ثم كلفه بعد ذلك بسلوك الطريق الذي يختاره لنفسه.

ولا يعني ذلك أنه يطلق له الخيار أن يختار ما شاء ولا يترتب على ذلك جزاء ولا حساب ، بل سيحاسب يوم اليوم القيامة عن فعله إن خيراً فخير وإن شراً فشرّ.

فكل إنسان يولد على فطرة صافية نقية من أدران الشوائب كلها ، ثم إن نفسه حينئذ تكون متهيئة لكل ما يرد عليها من الموارد سواء كان سليمة أم سقيمة ، كما قال النبي **r** : " كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه " (رواه البخاري...)

فالإنسان أقرب ما يكون إلى الطباع السليمة والسجايا المستقيمة ، فهو أمر متأصل في نفسه لا ينفكّ عنه ، وإنما يأتيه العطب والخلل من جهة من يتولى القيام على تربيته ، وأما الشر والطباع الشريرة فهي أخلاق طارئ حادثة وإنما أتاه ذلك من جهة القوى الحيوانية التي تكمن فيه وفي داخله ، ولذا فالإنسان يعيش صراعاً دائماً بين الخير والشر اللذين هما طبيعتان في النفوس البشرية ، فكان لزاماً على الإنسان أن يحرص على اكتساب الطباع الخيّرة ويحذر كل الحذر من الطباع الشريرة .

وليس للإنسان للنجاة من ذلك طريق سوى الرجوع إلى دين الله التمسك به عقيدة وخلقاً والسير على النهج النبوي الشريف .

وبناء على ما سبق لا يمكن أن نقول إن طبيعة الإنسان خيّرة أو شريرة على الإطلاق ما دام يمكن استخدامها في الخير والشر ، ولا يمكن أن نقول – على الإطلاق – إن الدوافع الإنسانية التي هي من طبيعة البشر أنها شر محض ، حتى الدافع للتملك أو التقاتل والجنس ؛ لأنها دوافع ينتج من ورائها منافع متعددة ، كالبقاء البشري ، والدفاع عن النفس وحفظ الأعراض ونحو ذلك ، فالمشكلة تكمن في مسألة كيفية استخدامها لا في مسألة ذات الشيء ، وهذا تماماً نظير السكين والعنب ونحوه مما قد يستخدم في الخير أو الشر بحسب ما يكون مادة له ، فالعنب قد يؤكل فاكهة ، وقد يخمّر ويصنع منه مادة مخدّرة ، تفسد العقول ، وقل مثل ذلك في السكين وغيرها من الآلات التي هي سلاح ذو حدين – كما يقال - .

وتتبين علاقة القيم بالطبيعة الإنسانية كأساس لها في النقاط التالية :

أ- أن طبيعة الإنسان باعتبارها طبيعة متغيرة تقبل التوجيه والتطوير فإن الخير والشر فيها ليس متأصلاً فيها ، وإن كان هو بأصل خلقته أقرب إلى الخير باعتبار الفطرة التي فطره الله عليها .

ب- أن القيم الإسلامية لا تدعو إلى مقاطعة الغرائز محاربتها والوقوف في وجهها ، وإنما تدعو إلى توجيهها وتقويمها حتى تتلاءم مع مقتضيات الدين .

ج- أن القيم الإسلامية تراعي إمكانيات الإنسان التي يمتلكها ، وحدود قدراته التي تتوفر لديه ، فلا تكلفه بالمستحيل أو الخارج عن حد استطاعته ، كما قال سبحانه : " لا يكلف الله نفساً إلا وسعها " (سورة البقرة ٢٨٦) (انظر فيما سبق القيم بين الإسلام والغرب ٨١-٩٠)

المطلب الرابع :

أساس الحرية .

والمقصود بالحرية : هي إرادة الإنسان ، وقدرته على ألا يكون عبدا لغير الله .

أو هي : فعل الإنسان ما يريد فعله دون مدافع بمقدار إمكانه.

وإذا كان هذا هو تعريف الحرية فهي بهذا التعريف مطلب للجميع ، وحق مبذول لكل أحد ، ويعد الإنسان بهذا الاعتبار حراً مختاراً مريداً في دائرة تصرفاته الإنسانية كلها ، وبناء عليه كانت المحاسبة على تصرفاته التي يتصرفها لكونه مختاراً لما يفعله وليس مجبوراً عليها ، فهو يفعل الخير مختاراً فيثاب ، ويفعل الشر مختاراً فيعاقب ، وبتلك الحرية وهذا الاختيار كلفه الله وأرسل إليه الرسل تهديه وترشده ، ثم ترك له ما يختاره لنفسه من الخير أو الشرّ ، كما قال سبحانه : " إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا " (سورة الإنسان ...) وفي تقرير هذا المعنى قال العلامة ابن القيم : (شفاء العليل [١/ ٤٩])

الباب الثالث عشر : في ذكر المرتبة الرابعة من مراتب القضاء والقدر ، وهي مرتبة خلق الله سبحانه الأعمال وتكوينه وإيجاده لها ، وهذا أمر متفق عليه بين الرسل صلى الله تعالى عليهم وسلم ، وعليه اتفقت الكتب الإلهية والفطر والعقول والاعتبار ، وخالف في ذلك مجوس الأمة ؛ فأخرجت طاعات ملائكته وأنبيائه ورسله وعباده المؤمنين ، وهي أشرف ما في العالم عن ربوبيته وتكوينه ومشيئته ، بل جعلوهم هم الخالقون لها ولا تعلق لها بمشيئته ولا تدخل تحت قدرته ، وكذلك قالوا في جميع أفعال الحيوانات الاختيارية ؛ فعندهم أنه سبحانه لا يقدر أن يهدي ضالا ولا يضل مهتديا ، ولا يقدر أن يجعل المسلم مسلما والكافر كافرا والمصلي مصليا ، وإنما ذلك بجعلهم أنفسهم كذلك لا يجعله تعالى ، وقد نادى القرآن بل الكتب السماوية كلها والسنة وأدلة التوحيد والعقول على بطلان قولهم ، وصاح بهم أهل العلم والإيمان من أقطار الأرض ، وصنف حزب الإسلام وعصابة الرسول وعسكره التصانيف في الرد عليهم ، وهي أكثر من أن يحصيها إلا الله ، ولم تزل أيدي

السلف وأئمة السنة في أقفيتهم ونواصيهم تحت أرجلهم ؛ إذ كانوا يردّون باطلهم بالحق المحض وبدعتهم بالسنة ، والسنة لا يقوم لها شيء ، فكانوا معهم كالذمّة مع المسلمين . أ.هـ.

والدلائل على حرية الإنسان كثيرة نذكر شيئاً منها على سبيل المثال :

١- استخلاف الله تعالى للإنسان وتسخير الكون له ، كما قال تعالى : " هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ..." (سورة البقرة ...)

٢- أعطاه القدرة القوية في التمييز بين الخير والشر : وهذا من مقومات إعطائه الحرية المطلقة ، لكن بشرط التكليف الذي يحاسب عليه صاحبه إذا عرف الحق وانحرف عن الجادة .

٣- إرسال الله الرسل لتبليغ دين الله له : ثم هو بعد ذلك يختار ما يشاء بعد ظهور الحجة واتضاح المحجة له ، وتمايز الطريقين عنده ، وهما طريق السعادة وطريق الشقاء . قال تعالى : " رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً " (سورة النساء ...)

٤- اعتبار الرق والعبودية نقصاً في الحرية الإنسان ؛ ولهذا نلاحظ أن الشريعة قد أدخلت العتق من العبودية في كثير من خصال الكفارة ولها تشوف إلى الحرية ، ككفارة القتل والظهار والجماع في نهار رمضان وغيرها من الكفارات .

ضوابط الحرية : لابد من ضبط معنى الحرية والمقصود منها ؛ حتى لا يفهم منها أن المراد التحلل من كل القيود أو الشروط ، بحيث يتحول الإنسان إلى شبه البهيمة في تصرفاته وتعامله ، فلا نظام يحكمه ولا دين يردعه وقيم ولا أخلاق تحجزه عما لا يليق.

ومن تلك الضوابط :

أ- الاستقامة على شرع الله تعالى ، بأن يكيف المسلم غرائزه وشهواته لتتفق مع شريعة الله تعالى المطهر ، والتمسك بقيمه وأخلاقه السامية الرفيعة.

ب-عدم إيقاع الضرر بالنفس والآخرين : ولهذا قال النبي r : " لا ضرر ولا ضرار " (رواه ...) فما يتوهمه بعض الناس من أن الحرية هي أن يفعل الإنسان كل ما يبدو له حتى وإن ألحق الضرر بالآخرين فليس بصحيح بل هو باطل ؛ لأنه لو مارس معه أحد هذا المفهوم فألحق به الضرر لما قبل منه ذلك ولعدّه من التعدي على حقوق الآخرين فكذلك يجب أن يراعي ذلك مع الآخرين .

المطلب الخامس :

أساس المسؤولية .

والمقصود بها : المقدرة على أن يلزم المرء نفسه أولاً ، والقدرة على أن يفي بعد ذلك بالتزامه بواسطة جهوده الخاصة . (دستور الأخلاق في القرآن الكريم ص١٣٧) وعرفت بتعريفات أخرى كثيرة غير هذا والمقصود تقريب المعنى .

أساس المسؤولية : هو الإرادة السليمة الحرة ، والقدرة على تنفيذ الاختيار، فالعدالة تقتضي وجود المسؤولية المترتبة على وجود الحرية .

أو شعور الشخص المسؤول بأهليته لتحمل أعباء المسؤولية ، وقدرته على الالتزام بواجباته الأخلاقية وتحمل نتائجها. فلا يمكن أن يكون ملتزماً بالقيم متمثلاً لها في واقعه ما لم يكن عنده شعور بالمسؤولية ؛ ولهذا كان الموضوع جديراً بجعله أساساً من أسس القيم .

مجال المسؤولية وأقسامها :

الحياة كلها تعتبر مسرحاً للمسؤولية ، فحدد أوقات أداء المسؤولية الواجبة ، وإن كان لم يحدد في أحايين كثيرة مكان تلك المسؤوليات ، كما قرر أيضاً للأحوال الطارئة حالها من الاضطرار ، فراعى أوقات الضرورة ، وأسقط عن المكلف المؤاخذة حال الضرورة .

ولهذا تلاحظ أحكاماً كثيرة تبنى على التخفيف مراعاة لأحوال المكلف مثل : المسافر والمريض والمضطر ، والحائض والنفساء ونحوهم فليس هؤلاء في لزوم التكليف عليهم كغيرهم من إخوانهم الأصحاء الأسوياء .

- وأيضاً- فإن الإسلام قد راعى من لم تكتمل أهليته فلم يلزمه بالتكاليف الشرعية كما ألزم نظراءه من الأسوياء العقلاء البالغين ، حتى إنه راعى ما يقع منهم من التلف ، فلم يقم عليهم العقوبة وإنما جعل العقوبة في أموالهم ، وهؤلاء مثل الصبيان ، والمجانين والمكرهين والجاهلين والناسين ونحوهم ممن لم كامل الأهلية والتكليف .

ويمكن تقسيم المسؤولية على وجه العموم إلى قسمين :

أ- المسؤولية الفردية ، ولها حالان :

١- المجال الداخلي : وهذا يتعلق بالإرادة والقصد والعزم على الشيء ، ويكون فيمن انعقد عزمه على فعل شيء ثم حيل بينه وبينه لمانع خارجي لا لعزوفه هو عنه ؛ أو لجهله بكيفية القيام به ، وهذا يكتب له العمل وكأنه قد قام به ، فإن كان العمل خيراً كتب له حسنة النية الحسنة ، وإن كان

سيئاً كتب لـه نيـة العمل السـيء ، كمـا جـاء فـي صـحيح البخـاري وغيـره (٥ / ٢٣٨٠) عـن ابـن عباس رضي الله عنهما : عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يروي عن ربه عز وجل . قـال: (إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله لـه عنده حسنة كاملـة فإن هو هم بها وعملها كتبها الله له عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة فإن هو هم بها فعملها كتبها الله لـه سيئة واحدة) فبين النبي r في هذا الحديث أن الهم يتبع العمل ، وبحسب الهم والعزم على المفعول يكون الأجر أو الإثم وإن لم يقع شيء من العمل ؛ فدل على أن العزم على الشيء والهم به يقوم مقامه .

ولكن يخرج عن ذلك الوساوس والخطرات التي تطرأ على القلب ؛ ولهذا قال النبي r : " إن الله تجاوز لي عن أمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم " (رواه مسلم ...) والعلة في عدم المؤاخذة بذلك أن الإنسان أحياناً لا يستطيع أن يدافع الخطرات التي تطرأ على قلبه .

٢- المجال الخارجي (الظاهري) : وهو مسؤولية الإنسان عن أعماله الظاهرة ، سواء كانت كلاماً أم فعلاً ، ويشترط أن تكون عن قصد واختيار فلا تكون من باب الإكراه أو الخطأ المحض الذي لم يصحبه تفريط ، ولهذا قال سبحانه : " لا يؤاخكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم والله غفور حليم " (سورة البقرة ٢٢٥) ويخرج عن المسؤولية – كما أشرت سابقاً – الإكراه ، فالمكره على فعل الشيء لا يكون مسؤولاً عن سلوكه إلا في حال وجد شيء من الإتلاف ، فإن لم يوجد شيء من الإتلاف فإن الله يتحمل عنه ما وقع منه ، فإن حقوق الله مبنية على المسامحة ، وحقوق المخلوقين مبنية على المشاحة ، قال تعالى : " فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه ..." (سورة البقرة ١٧٣) ويدخل في مظلة العفو عن المؤاخذة – أيضاً- الخطأ والنسيان ، كما قال سبحانه : " ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ..." جاء عند مسلم " قال الله : نعم قد فعلت " (رواه مسلم ...).

ب- المسؤولية الاجتماعية : وهي مسؤولية أفراد المجتمع بعضهم عن بعض ، وهذا كله داخل تحت القاعدة الكبرى في الشريعة وهي قوله تعالى : " وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان " (سورة المائدة ...) وهذه المسؤولية توحي للفرد بأن لا يعيش منعزلاً عن أفراد مجتمعه ، بل يكونون يداً واحدة على عدوهم ، ومن هنا جاءت شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لتعطي هذا المعنى بكل وضوح ، وقد ثبت هذه المسؤولية في قلوب المؤمنين نبي الله r : "

من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فمن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان " (رواه مسلم ...)

وبهذا يتبن أن الإنسان ليس مسؤولاً عن فعل الشر وإنما هو مسؤول عن دفعه عن الغير بالنصح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أبوابه المعروفة في مظانها في هذا الباب ، وإذا حصل هذا تحقق للإنسان السعادة بالسلامة من الشر وحصول الخير .

وليس هناك تعارض بين المسؤولية الفردية والجماعية ، بل تندرج تحتها ، لأن الجماعة تشتمل على أفراد كل منهم مسؤول عن نفسه وأفعاله التي يقوم بها ، ومسؤول ثانياً عن انحرافات المجتمع وموقفه منها إذا وقعت .

ولهذه المسؤولية شروط :

١- أهلية التصرف : وذلك بأن يكون بالغاً عاقلاً ؛ حتى يتأهل لتحمل المسؤولية ويدرك تماماً بعقله ما ينفعه وما يضره .

٢- العلم : الذي يستطيع من خلاله أن يميز بين الحق والباطل والصواب والخطأ والحسن والقبيح .

٣- الإرادة : وهي القصد والنية ، ومع الإكراه أو الاضطرار تنتفي النية ، فكل عمل غير مراد للعبد فإنه لا يؤاخذ عليه ولا يحاسب عنه ، وذلك مصداقاً لقول النبي **r** : " إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى " (رواه البخاري ...)

٤- الاستطاعة : فمن لم يكن مستطيعاً للقيام بعمل ما فلا يكون داخلاً ضمن مسؤوليته ، ولهذا رفع الله تعالى الحرج عن غير المستطيع فقال سبحانه : " فاتقوا الله ما استطعتم ..." (سورة التغابن ...)

المطلب السادس :

الأساس الجزائي .

الجزاء في الاصطلاح : عرف بتعريفات كثيرة ، وأظهرها وأخصرها أن يقال :

هو ما يترتب على عمل الإنسان المسؤول من مثوبة في الخير وعقوبة في الشرّ . (الأسس العامة لقانون العقوبات مقارناً بأحكام الشريعة الإسلامية ص١٠٣، نقلاً عن القيم بين الإسلام والغرب ص١٠٨)

والجزاء له أنواع كثيرة نتحدث عن شيء منها :

أ- الجزاء الإلهي الديني : ويراد به ثواب الله تعالى لعبده على العمل وعقابه له ، سواء كان في الدنيا أم في الآخرة ، ويدخل فيه كل نعيم أعده الله لعباده المؤمنين من حين دخولهم في قبورهم وحتى استقرارهم في دار النعيم الأبدي ، ويتضمن -أيضا- العذاب الذي توعد الله به الكفار وعصاة الموحدين ، من عذابهم في قبورهم حتى استقرارهم في دار العذاب في الآخرة – نعوذ بالله من ذلك - . وهو على أقسام :

- جزاء إلهي دنيوي : وذلك بمعاجلة العاصين المرتكبين للحدود بالعقوبة المناسبة لكل حد منها ، حماية للمجتمع الإسلامي من انتشار تلك الجريمة إذا ترك صاحبها .
- الجزاء الأخروي : كل إنسان في هذا الوجود قد بلغ سن التكليف لا بد له من أحد الدارين ، إما إلى الجنة وإما إلى النار ، كما قال السفاريني :

وكل إنسان وكل جنة * في دار نار أو نعيم جنة

وقول الله تعالى أعلى وأجلّ : " إن الأبرار لفي نعيم وإن الفجار لفي جحيم " (سورة الانفطار١٣-١٤)

ب-الجزاء الوجداني (القلبي) : وهو ما ينطوي عليه قلب المرء بعد عمل ما ، من شعور بالراحة والطمأنينة وانشراح الصدر بعد عمل من الأعمال الصالحة التي ترضي الله ، ومن شعور بالضيق والألم النفسي والكدر بعد عمل من الأعمال السيئة التي لا ترضي الله تعالى .

وهذا غالباً يكثر عند الذين يتميزون برقة المشاعر وإرهاف الطبع وصلاح القلب ، أما من لا يفرق بين الحلال والحرام واعتاد المعاصي حتى صارت سجية له فهذا لا يحس بذلك الشعور .

وكما قيل : ما لجرح بميت إيلامُ

ج- الجزاء الاجتماعي : وذلك مما يحصله المرء من المجتمع من تكريم واحترام على ما يلتزمه من طباع طيبة وخصال حميدة ، وما يحصله من ضد ذلك من المجتمع عند فعل ما لا يجمل من الخصال الرديئة .

وتكاد المجتمعات تتفق على خصال معينة على من خصال الخير أو الشر .

وهو ثلاثة أقسام :

١- الجزاء غير المباشر : وهو نتائج الأعمال السيئة التي يتلبس بها بعض أفراد المجتمع ، مما يكون سبباً في عقوبة الله تعالى بانتشار العداوة والبغضاء والشحناء والمشاكل ونحو ذلك .

قال تعالى : " ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون " (سورة الروم ...)

٢- الجزاء المادي : وهو ما يقرره الشرع من جزاء للصالح وعقوبة للمنحرف الضال ، وهناك عقوبات كثيرة مقررة في الشريعة كالحدود ونحوها ، وولي الأمر هو المخول بتطبيق تلك الحدود بعد الرجوع إلى العلماء في التثبت من وجود شروط العقوبة وانتفاء موانعها.

٣- الجزاء الأدبي : وهو القدح في شخصية الفاسق ، وعدم الثقة به ، فلا يزوج ؛ لقول النبي **r** : " إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه ..." (رواه ...) والفاسق غير مرضي الدين ، ولا تقبل شهادته ، لقوله تعالى : " ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون " (سورة النور ...) (انظر القيم بين الإسلام والغرب ص٩٩ وما بعدها)

المبحث الثاني

أسس القيم في الفكر الغربي المعاصر

المطلب الأول : المنفعة (اللذة والسعادة) .

وهذه الكلمة - وهي المنفعة - تحوي الاتجاه النفعي ، وهو : مذهب يقوم على أساس أن اللذة هي الغرض الوحيد الذي تهدف إليه رغبات الناس ، وأنها مستوى الأفعال الإنسانية ومعيار الأحكام الخلقية .

يعتبر " بنتهام " هو المؤسس للمذهب النفعي . وهذا المذهب : يعتبر مذهباً فلسفياً غير أخلاقي ، فهو يعتبر أن اللذة هي الشيء الخير الوحيد في الوجود .

وقد ظهر الاتجاه النفعي في الفلسفة الغربية المعاصرة في القرن الثامن عشر الميلادي ، ولكنه بلغ أوجه وتغلل في شتى مجالات المعرفة البشرية وهيمن على التفكير العلمي في القرن العشرين على يد وليم جيمس ، وجون ديوي .

وهو يعتمد على الواقع المادي ويركن إلى التجربة في تفسير الحقائق ، فهو لا يؤمن بشيء إلا إذا نتج عن فعله منفعة وفائدة . وكل فكرة لا تنتهي إلى نتيجة عملية ملموسة من خلال التجربة فهي خرافة ، وعليه فالنجاح العملي هو معيار أو محك صدق الأفكار.

وأما الحق والباطل لذاته بغض النظر عن نتائجهما لا قيمة له ؛ ولذلك فقد وجهوا كل جهودهم إلى نتائج الأفكار وآثار المعتقدات دون المبادئ الأولى والغايات.

وله موقف من بعض القضايا مثل :

- القيم : يرى النفعيون أن القيم إنما تقوم على مبدأ المنفعة ، سواء كانت فردية أم عامة ، وأن جوهر كل الفضائل ينبع من هذا المبدأ ويقوم على أساسه .

اللذة أو السعادة هي غاية قصوى للفعل الإنساني تسعى إليه القيم النفعية في المجتمع الغربي المعاصر ، فكما أن قيمة العمل تقاس بعد ظهور نتيجته فكذلك القيم تنشأ تجريبياً وتتطور بواسطة الإنسان ، وعليه فمقياس قيمة الخير على سبيل المثال هو الثمرة أو النتيجة الحاصلة عن العمل ، وليس مقياسها العقل أو الدين أو الوحي .

وبناء عليه فإن الطريقة المثلى لمعرفة القيمة النظرية والحكم على الحقيقة هو البرهان عن طريق العمل ، فإن ثبت نجاح النظرية وصدقها فإن القيمة تعطى على هذا الأساس .

- الدين : في نظرهم أن الدين تجريبي كسائر القيم ، وأن قيمته فيما ينتجه من نفع للمجتمع .

المطلب الثاني : المادة : لها عدة إطلاقات منها :

- تطلق ويراد بها : مذهب " أصالة المادة " ، وهي اعتقاد للواقع المادي الموضوعي الخارجي المحسوس .
- ومن إطلاقاتها : إنكار الوجود غير المادي أو على أقل تقدير تهميشه أو إهماله ، وأنها هي الأول وأما العقل فهو أمر ثانوي ، وهذا يتضمن أن العالم أبدي ، وأنه غير محدود الزمان والمكان ، وأن الوعي البشري نتاج المادة .
- منهج التفكير المادي : بناء على نظرة المادية للعالم الخارجي المادي ، واعتباره يمثل الحقيقة الكبرى الكاملة ، فإن هذه الحقيقة الموضوعية ذات وجود مستقل عن وعي الإنسان ، وغير خاضعة لمصدر آخر خارجي ، وأن العلم والمعرفة الصادرة عن المادة تقدم على كل علم ومعرفة أخرى عند اختلاف المصادر وتنوعها ، سواء كان مصدر هذه المعرفة الوحي أم كان حكماً عقلياً خالصاً .
- الدواعي التي جعلت المفكرين الغربيين يتخذون المذهب المادي مصدراً وحيداً للعلم والمعرفة ترجع إلى أمور :

١- فشل الكنيسة وإخفاقها في تقديم تفسير صحيح للعلم والمعرفة ، وانحطاط المعرفة التي كانت تتبناها طوال فترة سيادتها ، مما دفع بالكثير من العلماء والطبيعيين إلى مهاجمة الكنيسة ورفض تلك المعرفة المحصورة فيها ، مما أودى بحياة كثير منهم ، لكن الموجه العلمية سيطرت في النهاية على الموقف ، فهوجمت الكنيسة مهاجمة عنيفة من قبل كل من أنصار المذهب العقلي الحسي على حد سواء .

٢- فشل الفلسفة العقلية المثالية وإفلاسها في إبعاد التوجيه الكنسي كلية عن الإنسان ، وتنظيم الجماعة الإنسانية على هذا الأساس .

*** <u>نشأة المادية :</u>** يعتبر الفكر المادي من الأفكار القديمة جداً ، فهي ليست فكرة جديدة ولا إحدى نتائج التطور العلمي الحديث ، بل وجد في القرنين الأخيرين كباقي النظريات العلمية التي لم تكن